# مقدمات

١ ــ على معارج المادة إلى أفق مجهول .

٢ ــ تخلف التفكير المادى لدى المسلمين المتأخرين .

٣ ــ اللقاء بين العلم والدين فى الاسلام .

٤ ــ لقاء تعارف وحوار مفتوح بين اشتراكية الإسلام والاشتراكيات الأخرى .

٥ ــ ظهور الاشتراكية العربية فى المجال الدولى .

## على معارج المادة إلى أفق مجهول

على معارج المادّة تصعد الإنسانية إلى أفق مجهول . . .

يدعوها ويَحْدُوها شوقٌ دفين ونداء خفى يَرُوعها ويَهُولها فتقبل مسحورة فى لهفة . . .

يَلْقاها فى صعودها معلوم وراء معلوم فتفرح به لحظة ثم تضعه تحت قدميها دَرَجًا فى المعراج الذى تَرْقَى عليه . . .

لا يَثْنيها عن الصعود عائق فى سلم أو حرب . . . بل هى فى الحرب تسرع فى عُروجها ، وذلك لمضاعفات اللهفة التى تصيبها بها الحروب . . .

وكلما صعدت درجة اتسع الأفق أمام نظرتها فرأت ما لم تر من قبل . . .

كل غرائزها تخدمها فى ذلك الصعود ، حتى ما يحسَبُه الأكثرون هابطًا بها إلى الحضيض . . .

وكل أعمالها فى الأرض كذلك ولو كانت فى عَجْن الطين أو حفر المناجم ذات الظلمات والأعماق السحيقة . . .

وقد دَمِيَتْ قدماها وأصابها اللُّهاث من كثرة ما رَقِيتْ من درجات . . . ولكن فؤادها لم يلهث سأمًا ولا مللاً ، بل ازداد شوقًا وظمأ إلى بقايا المجهول . . .

ولقد أسرعت خُطاها وضاعفت قواها لأن اتساع الأفق أمام نظرتها أغراها بالإسراع . . .

إن سحر المجهول والباطن هو الذى أورثها سرَّ المعلوم والظاهر ، ولولا حساسيتها بالأول ما عرفت الثانى . . .

وفى البحث عن الأول تعثر عفْوًا على كنوز لم تكن فى حِسْبانها . . . كمن يحفر بئرًا طلبًا للماء فيعثر قبل الماء على ذهب . .

وقد يُلهيه الذهب مدة يَفْتُر فيها عمله فى البحث عن الماء ، ثم لا يلبث أن يدرك أن ذهب الأرض كله لا يُغْنيه عن قطرات الماء يبل بها ظمأه . . .

* * *

المادّة تهدي إلى المادّة . . . وما تزال كذلك حتى تنتهي البشرية من إدراك كل مواد الأرض وتضعها تحت قدميها فى مِرْقاتها إلى فوق . . .

وعندئذ يجوز لها أن تبدأ حياة جديدة وتبحث عن إدراك كنه الروح الأكبر الذى يغمر الكون ! وقبل ذلك لا يجوز لها أن تتطلع إلى إدراك كنه ذلك الروح ...

فلماذا يجادل بعضهم فى المادة ؟ ولماذا يجادل آخرون فيما وراء المادة ؟

المادة معراج ثمين إلى ما وراءها . . . وما وراءها كقطب مغناطيسى يجذب الفطرة الإنسانية ويجعلها تصعد على ذلك المعراج بإلهام التطلع والتشوّف والبحث ...

* * *

خذوا مثلا الزجاج والفَلَك . .

فمن كان يظن أن الزجاج — وهو من مادة الأرض — يُضيف بعدساته للملكوت الذهنى للإنسان ما أضافه من عوالم كانت مُطَلْسَمَة مسحورة بعيدة نائية البعد، ما كان يبلغها وهم الواهمين وخيال المتخيلين ؟

من كان يظن أن المناظير الزجاجية مقرّبة أو مجهّرة، تكون آلات و أدوات لعلم ما فى الأوْج وما فى الحضيض ؟ !

إن الفتوح التى أضافتها (التلسكوبات والميكروسكوبات) شيء كثير عظيم ، وسّع رؤية كثير مما فى أفلاك السماوات وأغوار ذرات الأرض . . . وكانت عَسِيَّة أن يعكف عليها الإنسان بجُهده الصناعى ليكشف أفقًا وراء أفق ، ويَهْتِك بها سِتاراً وراء ستار ، ويركّب بها طَبَقًا بعد طبق ، أو ينزل بها ذرّة تحت ذرة . . . ما دام يرى أنها مفتاح ثمين لأبواب العالم أعلاه وأسفله ! .

إنها من عالم السّر والسحْر . . . لمحتها أحلام الإنسان قبل أن يلمحها علمه وجَهده الصناعى ، إذ كانت فى « البلورة أو المرآة السحْرية » عند السحرة والراجِمات بالغيب والنفّاثات فى العُقَد . . .

وكأن تلك البلّورة أو المرآة كانت فى عصور الأحلام والعجز رمزاً لما ستدركه العين الإنسانية عن طريق العلم بالمقرّبات والمُجَهّرات فوق السماوات العُلا ، وتحت أطباق ذرّات الثرى . . .

* * *

وانقسم البشر بتلك العدسات إلى فريقين : فريق ينظر إلى أعلى بالمنظار المقرب لأبعاد السماوات ( التليسكوب ) و (الاسبكترسكوب ) المحلل لألوان طيف عناصر المادة ، والكاشف عن وحدتها فى السماوات والأرض . . .

وهذا الفريق هو فريق الرواد لاتساع الكون ، وإضافة ملايين الأبعاد المجهولة فى الأفلاك إلى عالم المنظور ، بإضافة ما يستطيعون من « بوصات» إلى أقطار عدساتهم وسُمْكها . . .

وفريق ينظر بالمجهر إلى أسفل فى أفلاك ذرات التراب ونباته وحيوانه ، حتى وصلوا إلى الفلك الأصغر ، فلك الخلايا والجراثيم والذرات التى انتهى إليها الحد الأدنى للمادة .

وما زال هذا الفريق تشغله الأقفال والمغاليق التى كانت على الذرّة ، فهو يَرُجُّها فى يده ويدُقُّ عليها بكل قوته ليفتحها ويدرك سرها ، حتى استطاع أخيراً أن يحطمها بعد أن استعان بملايين من قوى الأحصنة والرجال !

لقد أدرك الإنسان إذن قرار المادة وحدّها الأدنى . . . ولكنه لم يدرك بعد حدّها الأعلى . . . ولست أعلم هل أدركت عدسة تلسكوب مرصد كاليفورنيا — وهى أكبر عدسات المراصد فى العالم — ذلك الحد الأعلى للنجوم ؟ فيكون الجهد الإنسانى قد وصل إلى الذروة العليا والحضيض الأدنى فى برهة زمنية واحدة ليكون فى هذا التوافق معنى القصد والعناية من سيد الطبيعة ، بإرشاده الإنسان إلى إدراك الأوج والحضيض فى وقت واحد ؟ !

* * *

وخذوا مثلاً ثانياً : صعودنا فى طائرة مخترقة حجاب الصوت أو فى صاروخ أو فى قمر صناعى . . . فما هو أثر ذلك فى نفوسنا ؟ أليس هو الرَّوْع اللذيذ والذهول الكامل والتعجب من أنفسنا وقدرتها ، ثم التعبدُ لبارئها فى لحظات الانطلاق والتعلق بين السماء والأرض على كف العلم ؟ !

فأى محراب صلاة فى مسجد أو دير أو معبد ، يكون له فى صدق عبادتنا وقُنُوتِ قلوبنا ما يكون لتلك المحاريب الطائرة أو الصارخة أو الدائرة فى الأقمار الصناعية ؟ !

فلماذا الفرار من المادة والإزراءُ بها واحتقارها ، مع أنها تهيئ لنا أعظم محاريب الصلاة ؟ !

ولماذا محاولة الفرار بقلوبنا من جاذبية ما وراء المادة ، مع أنه قطبها المُمَغْنَط الذى يديرها بحركة الحياة وفيضها ويجذب إليه أشواقها وأطرابها ؟ !

* * *

وخذوا مثلا ثالثًا : أدوات الموسيقى : أليست مصنوعة من المادة : من الخشب والجلد والنحاس . . . ومع ذلك ففيها من هَيُولَى الأنغام ، وسَيَّالات الألحان ، وإشعاعات الأصوات ، وأنين المادة وحنينها ، ما يصعد بالإنسان إلى حيث يسمع النغم الذائب فى الكون كله . . . وما يخيل إليه كما خيل لأفلاطون أو فيثاغورس من قبل ، أن بناء الكون قائم على أسس موسيقية ، وما جعل تأثير الموسيقى فى تكوين الأمم ومزاجها يحمل أحد حكماء اليونان القدماء على أن يقول : « إذا أردت أن تغير أخلاق أمة ، فزِدْ فى قيثارتها وتراً أو انْزِعْ منها وترا » وما جعل حكيمًا آخر يقول : « لست أبالى إذا وضعتُ موسيقى أمتى أن يضع غيرى شرائعَها » ! .

وكأن فى كل ذرة مادية أنينًا وحنينًا إلى الانطلاق فى عالم النغم والصوت . . . فإن شئت فأطلق ذلك الأنين الحبيس برفق حينما ترقّق المادة فتجعلها وتراً رفيعًا أو دُفًّا رقيقًا أو صنّاجة حنّانة أو نايًا باكيًا ، تنقر عليها نقراً موزونًا أو تنفخ فيها نفخاً فى جمل موسيقية « وهرمونى » وتناسق وانسكاب . .

وإن شئت فأطلق ذلك الأنين الحبيس ، بعنف ، فرقعةً صاعقة راجفة كما فى تحطيم الذرة . . . !

ألاَ ما أعظم ما وسعته المادة من لمحات وآيات تضىء للعقل طريقه فى مجاهل الكون !

فى كل ذرة تراب أو لمعة شعاع أو فحمة ظلام ، أو قطرة ماء ، أو خفقة نسيم ، رُوحٌ يَغْمِز القلوب لتستيقظ للوجود ، ومصباحٌ على الطريق إلى خالق الوجود ! . .

وإن ما ينقص البشرية فى حياتها العقلية الآن شىء واحد . . . هو أن تأخذ المادة بالتذوق الكامل بعد أن أخذتها بالحواس والذهن الحسابى الآلى . . .

نريد نفوساً تذوق «معانى» الحديد وراء إحساس اليد بكثافته وثقله وبأسه. . .

وتذوق « معانى » المطعومات الشَّهية أو البشعة ، وراء ما يَطْعَمُ اللسان منها . . . وتذوق معانى أزاهير الروض وراء عَبيرها وحريرها ورُوائها . . .

نريد نمو ملكة التذوق للأرقام والأحجام والأبعاد والأثقال والكثافات. . . حتى ننطلق منها ونسمو ، كما تنطلق الفراشة من الشَّرْنقة . . .

نريد تحويل المادة إلى رُوح شفيف وجوهر لطيف فى مشاعرنا وأفهامنا . . .

والأمر سهلٌ غايةٌ فى السهولة إذا فهمنا أننا نحكم العالم من داخلنا ، ونكيّف كل شىء بهذا السر الذى فى نفوسنا ، وإذا أدركنا أننا نحتاج فى عملية التحويل هذه إلى علم غزير وفقه كبير بأسرار المادة ودقائق تركيبها وتحليلها وقوانين تسخيرها ، وإذا لم نتمرد على سننها المطردة ونحاول الانفلات منها بالأحلام والأوهام والشطحات التى ليست من مِزاجِ الإنسان العربى. وإنما جاءته من شعوب أخرى تُدْمِن الأحلامَ وتستمتع بِرُؤاها وتحاول تجسيم الخيال . والانسلاخ من قيود المادة وسننها المطردة . . .

أجل ، إن العربى — وهو عنوان العقل الإسلامى وأستاذُه — بتكوينه الأصيل فى جزيرته « الأمّ » هو ابن الطبيعة اليقظ الصاحى لوقائع الحياة القاسية التى كانت تحيط به ، فلم يكن حتى فى شاعريته الفائقة ، جامح الخيال ، ولا منطلق البَدَوَات. ولا أخيذَ الأوهام الشاردة. . . وإنما كان دقيق الحس بالطبيعة ووَقْعِ قوانينها فى نفسه وحياة بيئته. . . ولذلك كان شعره وُضوح رؤية لمشاهد الطبيعة ، وحكمةَ حياة تعتمد على الحسّ والصَّحْو ، وتجارب مجتمع بشرى يعيش فى الأرض ، لا مع آلهة الخرافة وشياطين الجن كالمجتمع الإغريقى القديم . الذى كان يعيش مع الآلهة الموهومين والأبطال الأسطوريين فى خيال طُفُولىّ طليق . . .

فعلى العربى أن يكشف عن ميزاته الأصيلة بالاتصال الدائم بالطبيعة وإدراك علومها المادية ، وتجميل الحياة فيها بحِذْقِ فنون العيش الأحسنِ والأفضل، حتى يسايرَ رَكْبَ البشرية الراشدة الصاعدة إلى الأفق المجهول . . .

## تخلف التفكير المادى لدى المسلمين المتأخرين

درج المسلمون فى العصور المتأخرة ، على فهم غير صحيح لمقومات الحياة وأدوات العيش العزيز ، وإدراك آثار الأعمال المادية بها ، والعلاقة بين المادة والروح فى مجالاتها . . . وقد ترك كل ذلك فى حياتهم آثاره الحتمية ، من التخلف فى جميع الميادين وضعف التدبير ، والاعتماد على الأحلام والأمانى عند العجز ، وعدم إدراك أن الطبيعة كلها صراع مواد وقوى .

ولذلك نرى أكثرهم يكادون يعيشون وسط هذا العالم الصناعى المعقد ، عيشة بدائية بالزراعة والتعليم النظرى والأحلام الشاعرية ، ويطمع فى حكمهم كل جاهل بسير الحياة ، لا يتصل بعلم عصره واكتشفات زمانه ، ولا يزال بعض أممهم يتوجس من علوم الحضارة الحديثة خيفة على ما يسمونه الخُلُق أو الدين ، وهما منهم براء . . .

وصور أبطال الروح فى خيال أكثرهم صور من الدراويش والعجزة والقاعدين عن الزحام والمشوهين ومن قعدت بهم هممهم عن التنافس فى مجالات الحياة .

ومجالات الاختراع والاكتشاف عند أكثرهم ، هى مجالات الأدب والشعر والفن والجدل والمماحكات اللفظية والتوغل الصرف فى أودية الشطح والتهويم والرموز . . . .

ورجال الدين عندهم بعيدون عن العمل المادى الذى به قوام الحياة ، فقلّ أن تجد فيهم من يحسن عملا ماديًّا لخدمة البيت أو البيئة كالنجارة أو الحدادة أو الآليات أو الكهربيات أو الطبيعة أو الهندسة أو غيرها من المهن والحرف التى يملأ الانتفاع بها كل بيت وكل مدينة * .

وكأنهم يرون أن فى مزاولة العمل المادى حطّةً وقلة شرف . . . مع أنهم يروون فى سيرة الرسول محمد أنه « كان فى مهنة أهله » أى خدمتهم ، وكان يخصف

* ومن هنا كانت إقامة جامعة الأزهر المتكاملة فى الدراسات الدينية والعلمية العصرية أحد أعمال التغيير الحيوى الكبير لحياة المسلمين المعاصرين .

نعله ويذبح ذبيحته ويرقع ثوبه بيده، وكان راعياً تاجراً حاذقاً أميناً قبل بعثته .

وآمالهم أمانيّ كواذب غير عملية ، إذ لم تُبْنَ على فهم العلاقة بين الأسباب والمسببات ، ولذلك لا يستقبلون أمورهم ذات الخطر بالتدبير الكامل والعقل المستجمع كل قواه ، بل كثيراً ما يتركون فى تدبيرهم فجوات وثغرات تدخل منها أسباب الخيبة الإخفاق ، ثم يرجعون باللوم على الأقدار بعد أن تصيبهم الخيبة . . .

وإجمالا كأنهم ما يزالون بعد فى عهد الطفولة وعجزها وفرحها بالأمانى والأحلام واعتمادها على الخيالات والخرافات والأوهام . . .

ولذلك صاروا يستقبلون الأحداث الفواجع بابتسامة ليست فى شىء من رباطة الجأش والهزء بالأحداث اعتماداً على المقاومة ورد الفعل ، وإنما هى من ابتسامات البَلَه والانحطاط الفكرى عن تقدير الأمور حق قدرها فى أشد الظروف حرجاً ، ومن ضعف الهمم والأفكار عن بلوغ مستوى الأحداث .

ولو لم يكونوا كذلك ما نامت لهم عين من الأهوال المفزعة التى يرونها من وراء قيام دولة إسرائيل بأحدث النظم والعلوم وآلات الحرب فى قلب بلادهم ! قياماً قصد به الفصل الحاسم بين مسلمى المشرق ومسلمى المغرب بحاجز كثيف من القوة البشرية التى تتزايد كثافتها يوماً بعد يوم للقضاء عليهم جميعاً . . . ولأدركوا قبل فوات الأوان ، ما يجب عليهم إزاء هذا الخطر الداهم فى معركة الحياة أو الموت مع الصهيونية العالمية التى أقامت إسرائيل . . .

ثم هم لا يزالون غافلين عما يأتى به كل يوم من الجديد الذى تزيد به قوة أعدائهم ويزيد فى اختلال ميزان القوى لحظة بعد أخرى ، وغافلين عن طبيعة العصر وما ينبغى معها من حياة اليقظة والمتابعة لسير العلوم بالإنسان . . . فقد تكون أمة فى لحظة ما أقوى أمم الأرض بحيازتها سراً من أسرار القوى العلمية ليس عند غيرها ، فتأتى لحظة بعدها لأمة أخرى بسر آخر يقلب ميزان القوى وينقل مركز الثقل إليها . . .

ولذلك ليس السباق والصراع الحقيقى الفعال فى هذا العصر فى ميادين القتال على أيدى الجنود ، وإنما هو بين علماء الشعوب فى المعامل ، وبين العمال فى المصانع . . . أى فى حياة الإدراك العلمى المرهف واليقظة والحذر والعمل الفنىّ الحاذق المتتابع . . .

كل هذا يحدث للمسلمين المتأخرين مع أن القرآن يهيب بهم أن يبذلوا ما فى استطاعتهم من إعداد وسائل القوة والمنعة ، حتى يرهبهم أعداؤهم فلا يفكروا فى مهاجمتهم والقضاء عليهم : ( وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قُوَّة ) وهذا أمر واضح فى جملة قصيرة جامعة .

ومن غريب أمر المسلمين المتأخرين أنهم لم يفطنوا إلى ما قصه القرآن من سير الأنبياء والرسل ، رواد الحياة الروحية الذين ارتادوا للأمم الطريق إلى الله ، وكانوا فى الوقت نفسه رواداً فى طريق العمل المادى . . .

فلقد كان النبى ( نوح ) رائداً فى صناعة السفن ، حينما صنع سفينته بوحى من الله ليحمل فيها من آمن معه من قومه ، ومن كل حيوان زوجين اثنين ، لينجوا من الطوفان.

وكان النبى ( إبراهيم ) وابنه النبى ( إسماعيل ) يتقنان صناعة البناء ، وبذلك رفعا قواعد البيت الحرام فى مكة : ( وإذ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَوَاعِدَ من البَيْتِ ، وإسْماعِيلُ ). وقد نوه القرآن بكفاية أسرة إبراهيم العملية والنظرية فى هذا القول الرائع المخلد لذكرهم المبين لمكانتهم عند الله : ( واذكرْ عِبادنا إبراهيمَ وإسحاق ويعقوبَ أُولِى الأَيدِى والأَبصار . إنَّا أَخْلَصْناهم بخالِصَةٍ ذكرَى الدَّار . وإنهم عِندنا لَمِن المُصْطَفَيْن الأَخْيار ) ولنتأمل قوله : ( أُولى الأَيدى ) !

وكان النبى ( يوسف ) رائداً من رواد التدبير المالى والاقتصادى فى مصر ، فحماها وماحولها من البلاد من المجاعة : ( قال تَزرَعون سبعَ سِنين دَأَبًا فما حَصَدتُم فذَرُوهُ فى سُنْبلِهِ إلا قليلاً مما تأْكلون) ، ( قال اجعلنى على خزائنِ الأَرضِ إنّى حفيظٌ عليم ) .

وكان النبى ( موسى ) قويًّا أمينًا مكنته قوته وأمانته من أن يدافع عن بنى قومه وأن يساعد ابنتى النبى ( شعيب ) على سقى قطيعهما ، مما رشحه لزواج إحداهما وللعمل عند أبيهما : ( قالت إحداهُما يا أَبَتِ استأْجِرْهُ إنَّ خيرَ من استأْجرتَ القوىُّ الأَمينُ ) .

وكان النبي ( داود ) وابنه النبي (سليمان ) رائدين فى الصناعة ، يصنع أولهما الدروع السابغات ويأكل من عمل يده . ( وأَلَنَّا له الحديد . أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وقَدِّرْ فى السَّرْدِ ) ويشرف ثانيهما على كثير من الصناعات ويسخر فى سبيل ذلك قوى الطبيعة الظاهرة والخفية ( ولسليمان الريحَ غُدُوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شَهْرٌ وأَسَلْنَا له عَيْنَ القِطْرِ ، ومن الجنِّ مَن يعملُ بين يديْه بإذن ربِّه . . . يعملونَ له ما يشاءُ من مَحاريبَ وتماثيلَ وجِفانٍ كالجَوَابِ وقُدُورٍ راسياتٍ . اعمَلُوا آلَ داودَ شُكْرًا . . . )

وفى قصة سليمان مع ملكة سبأ تتضح قيمة العمل المبنى على العلم وقيمة انتصاره فى تحقيق أهداف الإنسان بالسرعة الخارقة ، إذ نقل الذى عنده العلم عرش بلقيس من اليمن إلى أورشليم فى لمحة نظر : ( قال الذى عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيكَ به قبل أن يرتدَّ إليكَ طَرْفُك . فلما رآه مستقِرًّا عنده قال هذا من فضل ربى ) .

وكان العلم والعقل والخلق مناط اختيار الله لبعض البشر ، فقد اصطفى الله ( طالوت ) ملكًا على اليهود فى ظرف من ظروفهم العصيبة ، وقد رشحه لذلك ما أوتى من بسطة فى العلم والجسم (قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطةً فى العلم والجسم ) .

وكان ( ذو القرنين )من رواد إقامة السدود بجانب ريادته لحياة العدل والإصلاح : ( قال ما ما مَكَّنِّى فيه رَبِّى خيرٌ ، فأَعِينونى بقوة أَجعلْ بينَكم وبينهم رَدْما . آتُونِى زُبَر الحديد ، حتى إذا ساوَى بين الصَّدَفَيْن ، قال انفُخُوا ، حتى إذا جعله نارا ، قال آتُونِى أُفْرِغْ عليه قِطْرًا ) . . .

وكان النبى ( عيسى ) المسيح نموذجًا فى معرفة (صناعة الحياة ) نفسها وطب الأجسام وشفاء الناس من الأمراض بإذن الله وروحه . . .

ثم كان ( محمد ) خاتم الأنبياء والمرسلين ، الثقة الأمين فى كل

ما زاوله من عمل أو تجارة ، فكان الراعى اليقظ والتاجر الثقة والمحارب الشجاع والقائد العسكرى الموفق والمربى الشعبى ورجل الدولة والدين . . . وكان أصحابه معه تجاراً ورعاة ومحاربين وممارسين لكل أنواع الحياة العملية ،ولم يكونوا من ( الدراويش ) ، المتواكلين والعجزة الحالمين القاعدين عن الضَّنْك فى الأسواق والعمل فى مرافق الحياة .

فكيف ومن أين أتى المسلمين المتأخرين هذا الوهم الذى فصل بين حياتهم الروحية وحياتهم المادية وجعل رجال الدين منهم يستنكفون من العمل اليدوى ، ويتركون العلم المادى لغير المسلمين حتى سبقوهم ؟ !

لقد سبق المسلمون أهل أوربا فى صناعة كل شىء يحتاجه زمانهم وكانوا أساتذتهم فى الطب والرياضة والفلك والموسيقى ، إلى آخر فنون الحياة وعلومها .

إذن فالحياة المادية جديرة بأن نعيرها العناية اللائقة بمكانة المادة فى ملك الله وملكوته كما أعارها هو نفسه . . . إذ جعلها مجالى لظهور علمه وقدرته وحكمته وفنون إبداعه فى الخلق ما يشاء . . . وإذ جعل رواد الدعوة إلى معرفته والإيمان به والتعبد له روواداً فى الوقت ذاته للعمل فى المادة وتدبيرها وتصنيعها والانتفاع بها . . .

إن الدنيا فى التصور الإسلامى الصحيح مزرعة للآخرة ، فلا تصلح آخرة امرئ إلا إذا صلحت دنياه ، وسنحاسب فى الآخرة على التفريط فى إصلاح الدنيا .

فالعمل الطيب فى الدنيا وسيلة لصلاح حياة صاحبه فى الآخرة كما هو وسيلة لصلاح دنياه . . . ولولا خوف أكثر الناس من حساب الله وجزائه هناك لم يتقنوا أعمالهم هنا . . .

وكيف لا تخشى الضمائر حساب الله وهو يقول لها : ( يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّم وأَخَّر . بل الإنسانُ على نفسه بَصيرةٌ ، ولو أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ) ، ( يوم تجدُ كلُّ نفسٍ ما عَملت من خيرٍ مُحْضَرًا ، وما عَمِلت من سوءٍ تودُّ لو أَنَّ بينَها وبينه أَمَدًا بَعيدًا ، ويحذِّرُكم اللهُ نَفْسَه ) .

وهذا الازدواج والتكامل بين العمل للدنيا والعمل للأخرى أمر طبيعى منطقى

يتسق ويتفق مع منطق العقيدة الإسلامية - فى أن الحياة هنا وهناك واحدة بالجسم والروح . . . أى أن الحياة فى الآخرة استئناف للحياة الأولى يبعث الأجسام بعد موتها ، وممارسة للحياة المتكاملة بالجسم والروح فى المجالات التى اختارها وفضلها كل امرئ لنفسه فى حياته الأولى التى جعلها الله مجالا للاختيار . . . فإن يكن الإنسان قد اختار القبيح والسيئ والشر فى الدنيا فمصيره طبعًا فى الآخرة إلى ما اختاره لنفسه فى دار مخصصة للقبح والشر والسوء ، وإن يكن قد اختار الجميل والخير والحسن هنا ، فمصيره إلى دار مخصصة للجمال والخير والحسن هناك كذلك . كما يقول القرآن :

( للذين أحسنوا الحُسْنَى وزيادةٌ ) ، ( والذين كَسَبُوا السيئاتِ جزاءُ سيئةٍ بِمِثْلِها ) ، ( ثم كان عاقبةَ الذين أساءُوا السُّوءَى ) ، ( ذوقُوا ما كسبتم لأنفسكم ) ، ( هل تُجْزَوْن إلا ما كنتم تعملون ) .

وقد مكن الله للإنسان فى الأرض ، وأوسع له فيها ، وأعطاه من الدنيا على قدر همته وما يستطيع وما يعمل ، وصدق الحديث المحمدى : « إن الله يعطى العبد على قدر همَّتِه ونَهْمَتِه » . ولم يجعل الإسلام الدنيا فى تصور المسلم سجناً أو دار عذاب وألم خالص أو غالب أو لا تحتمله طاقته ، وإنما جعلها على وضع مناسب يليق بدار مؤقتة للاختبار ، إن يكن الله قد مزج فيها المباهج بالآلام فإنه جعل مباهجها ونعمها هى الغالبة ، وجعلها مغمورة برحمته وكرمه وترحيبه بالداخلين إليها ، مجلوة بالجمال والزينة وألوان المتاع وفنون العلم والقدرة والحكمة والإبداع :

( إنَّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنَبْلُوَهم أيُّهم أحسنُ عَمَلًا ) ، ( قل من حرّم زينةَ اللهِ التى أخرجَ لعباده والطيباتِ من الرزق ؟ ! . قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة ) ، ( إنا زيَّنَّا السماء الدُّنيَا بزينةٍ الكواكبِ ) ، ( انظُرُوا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعه ) ، ( زُيِّن للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطيرِ المُقَنْطَرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعامِ والحَرْث ، ذلك مَتاعُ الحياة الدنيا ) ، ( ولَكُم فيها جَمَالٌ حِين تُريحون وحِين تَسْرحون ) ، ( كلوا من طيبات ما رزقنا كم )

ونبلُوكُم بالشر والخير فِتنةً ) ، ( ولَنَبْلَوَنَّكمُ بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأَموال والأَنفسِ والثمرات ، وبشِّر الصابرين ) ، ( اعلَموا أَنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولَهْوٌ وَزِينةٌ وتفاخرٌ بينَكم وتكاثرٌ فى الأَموالِ والأَولاد ) .

إذن فطبيعة الحياة الدنيا فى رأى القرآن أنها دار جمال وزينة ومتاع بكل طيب ، مع امتزاج متاعها بشيء قليل من أسباب الألم والخوف والجوع والفقد ، لتكون فى وضعها الذى أراده الله لها بوصفها داراً للابتلاء والاختبار ، وللتطلع منها إلى ما وراءها من ملكوت رَحْب كامل دائم ، يدعونا للاستعداد لسكناه خالدين فيه متفرغين لحياة السلام والمتاع خالصين من الآلام والمتاعب والمخاوف .

وفى هذا الاستعداد سر الاختيار والاختبار ، ليظهر ( أَيُّهم أَحسنُ عملا ) .

وقد وعدنا رب الكون بأن يجدد لنا المتاع الحسن إلى آخر آجالنا فى هذه الحياة ، وأن ينيل كل ذى شأن فاضل وعمل نبيل جزاء فضله ونبله ، إذا ما رجع كل منا دائمًا إلى هذا السيد وفرَّ إليه من خطاياه :

(وأَن استغْفِرُوا ربَّكم ثم تُوبُوا إليه يُمَتِّعْكم متاعًا حَسَنًا إلى أَجلٍ مُسَمًّى ويُؤْتِ كُلَّ ذى فضلٍ فَضْلَه ) .

وقد أوسع الإسلام ويسر كثيراً فى مفهوم العبادة ، حتى جعلها تشمل تذوق جميع شئون الدين والحياة ، حتى المتاع واللذات المباحة ، إذا ما صحبها ذكر اسم الله .

فجوهر العبادة بذلك هو الإدراك والشعور بفعل يد الله فى الطبيعة والنفس والحياة ، وذكرُه مع كل علم أو عمل أو متاع أو ألم ، والسيرُ على ما وضعته هذه اليد من سنن ومناهج فى الطبيعة والشريعة .

وبذلك تتحول مزاولة كل شأن فى الحياة إلى عبادة لسيد الحياة !

# اللقاء بين العلم والدين في الإسلام

١ – أود أن أوضح حقيقة ألمَحتُها فى القرآن كتاب الإسلام ، وأقررها على ثقة من صحتها ، وهى أن موضوع ما نسميه (العلم) وما نسميه (الدين) موضوع واحد ، هو الكون كله بما فيه الإنسان .

غير أن الدين يبحث موضوع الكون كله ليعرف دلالاته على خالقه وعلى صفات ذلك الخالق وعلى مصير الكون والإنسان ، وليعلم طرق التعامل مع الكون ومع خالقه ويسلك أحسن السبل فى ذلك التعامل . وما يصل إليه الفكر فى هذا عن طريق الوحى الإلهى أو عن طريق الرشد أو « الحكم العقلى » المنطقى هو علم الدين .

وبعبارة أخرى ؛ الدين هو محاولة الكشف عن سر الكون كله والتعرفُ إلى خالقه والتعاملُ معه معاملة تليق بمقامه .

أما العلم بمعناه العصرى ، فهو حصيلة التجارب ونتيجة المحاولات لمعرفة أسرار جزئيات الكون المادّى ، ثم استخدامُ ذلك وتسخيره للانتفاع به .

وعلى هذا يكون العلم جزءاً من الدين ، لأن موضوعه ، وهو جزئيات الكون ، مندرج فى الموضوع الكُلّىّ للدين وهو الكون كله .

٢ – ومنشأ قضية « الخلاف بين الدين والعلم » – وهى القضية التى ثارت منذ عصر النهضة الأوربية الحديثة ، أى فى القرن الخامس عشر الميلادى وما بعده ، عقب بدء ظهور الأسرار العلمية التى كشفت عنها التجربة والمشاهدة – هو الاختلاف على تفسير بعض ظواهر الكون وتعليلها بين العلم وبعض الأديان ، وقد يصل الخلاف إلى حد التناقض بينهما تناقضاً لا يمكن رفعه .

وطبيعى أن الكتاب الناطق بالدين إذا كان من الخالق لا يمكن أن يناقض

كتاب الكون الصامت، كتاب الطبيعة ، لأن « مؤلف» الكتابين واحد . . فلا يعقل أن يختلف قوله مع عمله . . وفى ذلك يقول القرآن : ( قَوْلُه الحقُّ وله المُلْكُ، يومَ يُنْفَخُ فى الصُّور ، عالمُ الغَيْبِ والشَّهادة ، وهو الحكيمُ الخبير ) ، ( تنزيلاً مِمَّنْ خلَقَ الأرضَ والسمواتِ العُلاَ ) ، (قل أنزله الذى يَعْلَمُ السرَّ فى السمواتِ والأرضِ ) ، ( ألاَ يعلمُ من خلَقَ وهو اللطيف الخبير ) .

٣ — والواقع أن التفكير المنطقى وتسلسله هو الذى يضع الإنسان على أول طريق الدين وأول طريق العلم فى وقت واحد ، لأن محور الدين هو التساؤل بتلك الأسئلة الخالدة لدى كل عقل يتفتح لأول الإدراك والرشد : مَنْ نحن ؟ وما هذا الكون الكبير ؟ ومن خلقنا وخلقه ؟ وإلى أين المصير ؟ وما هى الغاية ؟

وهذه الأسئلة كما يبدو هى أسئلة عقلية كما أنها أسئلة دينية . . وقد نشأ العلم الدينى والعلم بالطبيعة من نتائج الأجوبة الصحيحة عن هذه الأسئلة .

وقد مزج القرآن بين هذين النوعين من العلم ولم يفصل بينهما فى قضية الإيمان بل إنه عدهما علماً واحداً هو العلم الأكبر الكُلِّى بالكون والنفس والحياة وامتدادها مع الله الخالق فى هذه الدار الدنيا وفى الدار الأخرى ، دار الجزاء والخلود والسلام الأبدى . . واعتبر نقص العلم وقصوره عن هذا المستوى الشامل غفلة وجهلا فقال ( ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ) .

٤ — والعلم بمفهومه العصرى وهو ما استيقنته النفس عن طريق التجربة والمشاهدة الحسية فى جزئيات المادة والطاقة ، جزءٌ من أنواع العلم بمفهومه الواسع وهو اليقين عن طريق (الحكم) العقلى) المستخلص للنتائج من المقدمات . . سواء أكانت المقدمات حسية أم معنوية لا تدرك بالحواس ولا تخضع للتجارب المادية .

والواقع الذى لا جدال فيه أن ( الحكم العقلى ) هو الذى يدرك الأشياء والنِّسَبَ والعلاقات التى بينها ، والأمور المادية والمعنوية ، ويدرك القوانين التى تحكمها ، ثم يستنبطها ويلخصها ويفرغها فى قوالب صحيحة محبوكة منطقية تضيف إلى رصيد الحقائق العلمية التى فرغ من تقريرها وسلم بها وصارت من ميراث العقل الإنسانى وقام عليها بناء العلم والمعرفة . . كالحقائق والقوانين العلمية والرياضية

والأحكام العقلية القاطعة فى جميع المجالات .

فينبغى أن يكون واضحًا أن « الحكم العقلى » هو الأصل فى العلم بمعناه العصرى كما أنه الأصل فى العلم بمعناه الكلى ، وهو المعيار الذى ندرك به المفردات والحقائق والقوانين فى الماديات والمعنويات ، وهو الذى يعطيها وصفها الدقيق ويضعها فى مواضعها الصحيحة ويصنّفها ، فينبغى أن يكون هو الحكَم الذى نحكّمه فى جميع مدركاتنا الحسية والمعنوية .

٥ — وبناء على هذا ينبغى ألا نحكّم العلم بمعناه الضيق — وهو العلم بجزئيات المادة والطاقة وقوانينهما عن طريق التجربة — فى أصول الدين ، فلا نرفض أمراً معنويًّا يدرك بالحكم العقلى لأننا لم ندركه بالتجربة والمشاهدة الحسية .

فقضية إثبات وجود الله ووحدانيته ، أو قضية وجود عوالم أخرى كالملائكة والجن ، أو قضية الحياة الأخرى فى دار الجزاء ، لا نستطيع إثباتها بالتجربة والمشاهدة الحسية ، ولكن نستطيع إثباتها عن طريق الحكم العقلى المنطقى المهتدى بالعلم والمستشهد بأسراره ، وخاصة أن العلماء العصريين يلجأون إلى الحكم العقلى حين يريدون أن يثبتوا وجود شىء يفرضونه حتمًا لأنهم لم يصلوا إلى إثباته عن طريق التجربة الحسية ؛ وذلك مثل حكمهم بوجود شىء يملأ الكون المادى كله ويتخلله وينفذ إلى كل جزء فيه ، وقد سموه (الأثير) ، وذلك ليعللوا به وصول موجات الضوء والصوت والكهرباء عبر المسافات الشاسعة والجبال والجدران والبحار والسدود فى طول الأرض وعرضها .. بل فى الفضاء الكونى كله .

وكذلك يسلك (الحكم العقلى المنطقى) إلى إثبات وجود الخالق العالم الحكيم القدير الرحيم طريق الاستنتاج من دلالات ما فى الكون المادى والحياة والنفس الإنسانية بذات طريق الاستنتاج العلمى ، كما يسلك عقل العالم الطبيعى الذى يبحث فى أية ظاهرة أو عنصر من ظواهر المادة وعناصرها ويدور حوله ليستخرج القوانين التى تحكمه والخصائص التى تميزه .

فـ (الله) فى رأى الحكم العقلى الدقيق هو العقل الأكبر أو الكائن الأعظم الذى خلق الكون ويحكمه .

٦ — ومن عجائب أمر القرآن التى يجدر بالعقل العلمى أن يلتفت إليها حتى يتأكد أنه ليس هناك خلاف بين العلم والإسلام ، أنه يسلك فى إثبات وجود الله الخالق والتعريف به وبصفاته مسلك هذا العلم المبنى على الحكم العقلى المهتدى بما فى الطبيعة والنفس .

فهو لم يعرّف ذات الله وكُنْهَهُ لأنهما طبعاً فوق إدراك العقل ، ولكنه عرفه بصفاته المستنبطة من عمله فى الطبيعة والنفس الإنسانية .

فى الكون لاشك علم محيط بالدقيق والجليل من الأشياء ، إذاً فخالقه عليم..

وفى الكون قدرة وخبرة وحكمة ورحمة ونزاهة وجمال ونظام وإصرار . . إذاً فخالقه قدير خبير حكيم رحيم قُدُّوس مؤمن مهيمن ...

إلى آخر ما فى الكون من ظواهر تشير إلى صفات صانعها .

فهذا الموقف فى الإسلام تماماً كموقف العلم الطبيعى الذى يستنتج صفات أى عنصر أو ظاهرة أو حقيقة من حقائق الكون وعناصره وظواهره كما سبق القول .

ومن هنا يلتقى الإسلام والعلم والفكر المنطقى ، ولا يتصور أن يكون بينها خلاف ، وخاصة فى الأصول .

ومن هنا كذلك نعرف السر فى أن الأكثرية الساحقة من فلاسفة الإسلام وأطبائه ومفكريه لم يلحدوا أو ينكروا وجود الله وأصول الدين ، لأنهم عرفوا القرآن أولا فأعطاهم الصورة الرحبة الشاملة الصحيحة المقنعة التى لم تهزّها قراءاتهم للمذاهب الفلسفية اليونانية والفارسية والهندية .

وكيف يتصور أن يلحد أو ينكر مفكر أو عالم ديناً يعتبر العلم أكبر مكوناته وأعظم شواهده ، وقد أمر بالاستزادة منه ، ومجّده ونوّه بأهله وجعلهم شهداء مع الله الخالق والملأ الأعلى على قضية الكون العظمى ، وهى قضية وجود الله الواحد القائم على الكون كله بالقسط والرحمة والحكمة والقدرة ؟ فيقول : ( شَهِدَ اللهُ أنه لا إلَه إلا هو ، والملائكةُ وأولُو العلم ، قائماً بالقسط ، لا إلَه إلا هو العزيزُ الحكيمُ ) ويقول : ( وقل ربِّ زدنى علماً ) ، ( يَرفعُ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ) ، ( إنما يخشى اللهَ من عبادِه العلماءُ ) ، ( والراسِخُون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ مِن عِنْدِ ربِّنا ) ، (هل يستوى الذين يَعْلمون والذين لا يعلمون ) .

وما ظننّا بدين يكون أول الوحى به أمراً بالقراءة، وهى مفتاح كنوز العلم، وتوجيهاً لعقل الرسول إلى أسرار علم الله فى خلق الكون وخلق الإنسان وتعليمه بالقلم ما لم يعلم ؟ ويكون من افتتاحات الوحى إليه القَسَمُ بالقلم وما يسطره الكتبة والعلماء والقسم بالكتاب المسطور ؟

فيقول : ( اقرأ باسم ربك الذى خلَق . خلَق الإنسانَ من علَق . اقرأ وربك الأكرمُ . الذى علَّم بالقلم، علّم الإنسانَ ما لم يَعْلَم )، (ن. والقلمِ وما يَسْطُرون) ، ( وكتابٍ مسطورٍ فى رَقٍّ منشور ) .

أولا يحقّ للمسلمين أن يقولوا بعد ذلك : إن الدين عندنا علم وإن العلم دين ؟ وإن حكاية الخلاف بينهما لا يعرفها الإسلام ، وإن الإسلام لو لم يكن ديناً جاءنا عن طريق الوحى الآلهى لكان المذهب العقلىّ الوحيد الذى لا يستطيع العقل أن يلجأ إلى سواه لحل مشكلات الفكر والاعتقاد ومشكلات العيش ؟ وإن فى هذه المزاوجة القرآنية الفريدة بين العلم والدين قضاءً على دعوى الخلاف بينهما .

٧ — ولنرجع بذاكرتنا وخيالنا القهقرىَ إلى عصر نزول القرآن ، ولْنستحضر ما كانت الأمم تعيش فيه من أفكار وآراء عن الكون والحياة . . ثم لنقرأ القرآن كأنه ينزل علينا حينذاك جديداً . . أفلا نجد أنه كان أعظم تفسير للكون والحياة وأعظم مبشر ومشير إلى المستقبل الذى يعيش فيه إنسان القرن العشرين وما بعده ؟ وهل أتت العصور التى تلت عصر نزول القرآن حتى عصرنا هذا بأية حقيقة علمية تناقض القرآن ؟ ثم ألم يصبح الكون الآن والعلم الكونى أعظم مفسر للقرآن كما كان القرآن أعظم مفسر للكون وقضاياه فى العصور الخوالى ؟

٨ — بقيت مسألة دعوة القرآن إلى الإيمان بالغيب، أى بأمور لا تدركها الحواس وقد تبدو بعيدة عن مجالات العلم بمعناه العصرى، لأن الغيب هو ما فوق عالم المشاهدة والمادة .. ولكن شيئاً من التفكير المتعمق يوضح لنا أن الإيمان بالغيب أمر مهم للصورة الكاملة التى يفرضها العقل للكون والحياة ويبدو الكون من غيرها ناقصاً . . لأن البداهة تحكم بأن الذى خلق هذا العجب الذى نراه فى الكون المادى لا بد أن يكون لديه عالم لا نراه يليق باتساع الكون واتساع قدرة خالقه . . وما دام الإنسان ضئيلا على كوكب ضئيل فى أبعاد هذا الكون الهائل . . فليس له أن يحكم عليه كله

حسب حواسه التى لا تعمل إلا فى دوائر ضيقة جداً من هذا الكون . . وينبغى أن تترك الرؤية فى هذا المجال للحكم العقلى الذى يدرك النقص الذى فى الكون المادى . . ويدرك الكمال الذى يليق أن يصل إليه . . وليس معنى الإيمان بالغيبيات ترك العلم والتفكير والتدبير إلى الشطح والتهويم و ( الدروشة ) . وإهمال العمل العلمى . .

« وبعد » فلا يصح مطلقاً لدى العقل الإنسانى أن نفرغ الكون من العقل الأكبر الذى خلقه ويدبّره ويقوم عليه ، بحجة أن العلم بمعناه الضيق لا يثبت بأدواته ذلك العقل الأكبر ؛ وإلا وقعنا بالإنكار فى إشكالات عقلية دونها بكثير ماعساه أن يخيل إلينا من إشكالات فى الإثبات ، إن كان فى الإثبات إشكال . .

ولا بد فى عصرنا هذا من الاعتماد فى إثبات الدين على العقل والعلم بمعناه الذى شرحناه ، وأن نرفض الأمور التى لا يقرها الحكم العقلى ، وأن نخاطب العقول بما يقنعها علمياً أولا .

كما لابد من الربط بين علم الإنسان وبين علم الله وقدرته حتى يكون التكامل بين الدين والعلم فى أذهان الناس ... وخاصة إذا علّمناهم أن العقل الذى يبدو فى الكون هو أستاذ عقولنا وأنه يسيّرنا بمنطقه ، وأن الخير والشر عنده كما هو عندنا ، وأن القرآن قد عنى بتوجيه العقول إلى احترام المادة وكشف أسرار خلقها وبدئها ولم يسمح باجتياز الطبيعة إلى ما وراءها إلا بعد الإلمام بها ومعرفة علومها ، وجعل فضل الإنسان على غيره من المخلوقات منوطاً بعلم أسرارها . .

# لقاء تعارف وحوار مفتوح
# بيان اشتراكية الإسلام والاشتراكيات الأخرى

**إلى الدينيين الحرفيين :**

أبادر فى البدء إلى تذكير الدينيين الحَرْفيين الذين قد ينفرون من هذا العنوان بأن النظم التى وضعها الإسلام للمعاملات فى الاقتصاديات والأموال ليست من أركان الدين وعقائده حتى يكفر مخالفها . . . وإنما هى نظم لإجراء التصرف فى الأموال والمعاملات فى ضوء روح الدين وعقائده وأخلاقياته، فإذا خالفها مخالف بدون إنكار أنها من الدين ، لمصلحة يراها أو حتى لغير مصلحة ، وهو مؤمن بالعقيدة فلا يعد كافراً . . . وقد يعد عاصياً . . .

والأصل فى تلك النظم أنها لتحقيق المصالح العامة المقصودة من تلك المعاملات . ويكيفها كل شعب حسب الظروف والأحوال بدون خضوع للهوى أو للسطحية أو لمجرد الخروج على الموروث لأنه قديم . . . و « أنتم أعلم بأمور دنياكم » حديث نبوى محمدى يشير إلى المنهج الصحيح للنظر فى مثل هذه الأمور .

وعلى هذا الأساس ينبغى ألا ينظر هؤلاء الدينيون الحرفيون إلى المذاهب الاشتراكية التى تؤمن بالله على أنها كافرة فى رأى الإسلام مهما كانت آراؤها فى الاقتصاد أو السياسة مشتطة . . . لأنها على فرض مخالفتها لنظام اقتصادى أو سياسى إسلامى مقرر لم تخرج على ركن من أركان الإسلام الأساسية وعقائده الجوهرية .

ونستطيع أن نقرر بكل ثقة أن الإسلام لا يعنيه من الرأسمالية أو الاشتراكية أو أى مذهب آخر إلا تحقيقه لمصلحة الناس مع عدم خروجه على أصول العقيدة وأركانها ، وأنه لا يأخذ على الاشتراكية الملحدة وينكر منها لأول نظرة إلا جحودها لوجود الله وأصول الدين فى سبيل إنصاف الطبقات الكادحة والمظلومة ، لأن هذا الجحود لا يستطيع النهوض أمام بَدَهيّات الإثبات من جهة ، ولأنه من جهة أخرى لا حاجة إليه إطلاقاً لدى

العقل والتجربة لإنصاف تلك الطبقات . بل إن العقل والتجربة يريان أن احتياج الدعوة لإنصاف هذه الطبقات إلى الايمان بوجود الله وحسابه فى يوم الجزاء احتياج شديد المساس بمصلحة تلك الطبقات كما سيتبين ذلك فيما بعد .

كما نستطيع أن نقرر فى اطمئنان أيضاً أن الإسلام لا يمنع على الأقل — إن لم يأمر — أن يتجه الناس فى سبيل تحقيق مصالحهم العامة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى ما ترضاه عقولهم وتقبله نفوسهم من الاشتراكية أو غيرها ما داموا يرون باختيارهم وحريتهم أن فى هذا مصلحة لمجتمعهم وازدياداً لإنتاجهم وإزالة لأسباب النزاع والأحقاد بينهم وعدم إضعاف للدافع إلى العمل فى نفوسهم .

فيجب دائما أن يتذكر الدينيون الحرفيون أن قصارى أمر من يؤمن بأركان الدين ويخالف هذه النظم التى وضعها الإسلام للاقتصاد والمال — على فرض أنها لا محيد عنها مهما رأى الناس مصلحتهم فى غيرها — قصارى أمر هذا المخالف أن يكون عاصياً وليس كافراً .

فلا داعى حينئذ إلى أن يكفر بعض المتدينين بعضاً إذا اختلفوا على الاشتراكية أو الرأسمالية . . . وما كان لهم أن ينكروا من الاشتراكية المغالية الملحدة إلا جحودها لوجود الله ورفضها للدين وإنكارها لدوره فى حل مسألة الفكر والاعتقاد وفى تحقيق الطمأنينة النفسية على قيمة الإنسان ووضعه وعلى قيمة هذا الكون العظيم .

**أخطاء متكررة من رجال الدين :**

وما كان يجوز إطلاقاً للدينيين أن يتخلفوا عن الدعوة إلى إنصاف الطبقات المظلومة وأن يقفوا باسم الدين فى صف أعدائها وهم يعلمون أن الأنبياء والرسل كانوا رواداً فى طريق دعوة الإنصاف والعدل والمساواة والإخاء والتكافل بين الناس مع الإيمان بالله ، وكانوا حرباً وثورة على طغاة المال والسلطان ، وكانت حياتهم أمثلة تحتذى فى تطبيق المساواة والعدالة ومقاومة الأوضاع الظالمة بين الناس ولو كلفهم ذلك حياتهم .

وما أظن أننى بحاجة إلى أن أضرب الأمثلة على ذلك من حياة الأنبياء والرسل وخاصة حياة المسيح ونبى الإسلام ومواجهتهما لطغاة المال والسلطان من أول لحظة

صدعا فيها بأمر الدعوة إلى الإيمان بالله ، ويتبين ذلك بوضوح فى بعض فصول هذا الكتاب .

فأولى بهؤلاء الدينيين ألا ينزعجوا من هذا العنوان ، ولا مما تحته من حديث رفيق منصف للمذاهب الاشتراكية ، فإن الإنصاف هو أعظم الوسائل وأقرب المداخل إلى التفاهم بين المختلفين ، ولا يخشاه ويعرض عنه إلا المتعصبون لآرائهم بدون تعليل ، وإلا المفلسون من حجج الحق واليقين .

ونحن المسلمين قد عرفنا ما عند الاشتراكيين الملحدين ، وبدا لنا أنهم أخطأوا المنهج الصحيح إلى تحقيق سعادتهم وسعادة الطبقات المظلومة حين أنكروا فكرة الإيمان بالله ولم يحاولوا أن يستعينوا بتلك الفكرة على حل مشكلة العيش المادى مع أنها أعظم الأسلحة فى هذا كما سبقت الإشارة ، فحرموا الإنسانية الطمأنينة على مصيرها ومصير الكون ولم يجلبوا لها خيراً من وراء ذلك . بل جلبوا شراً محققاً .

ونريد أن يعرفوا ما عندنا من حلول تاريخية وآنية لمشكلات « الفكر والاعتقاد » و « العيش » فى ضوء الإسلام حتى لا يظنوا أننا نسلك طريق غيرنا من المتدينين التقليديين المفرطين فى حق العقل أو حقوق الإنسان ، إذ يسيرون فى ركاب طغاة المال والسلطة جهلا بالدين أو جبناً أو تجارة ، أو الذين يعطلون قوى عقولهم فلا يدركون جوهر الحقيقة الكونية الدينية ، كما يشلون قوى كفاحهم فلا يجاهدون لتحقيق الكرامة والعدالة والمصلحة حين يدخلون رحاب الدين مغمضى العيون مخدرين بالأوهام والخرافات مسممين بالتعصب الدموى أو العقلى المغلق البغيض .

**لا يحتج بالأديان الوثنية :**

نعم إن هناك بعض الأديان كالهندوكية التى يقوم بعض جوانبها الأساسية على التفريق الصارم بين الناس وجعلهم طبقات بعضها فى القمة وبعضها فى الوسط وبعضها فى الحضيض كالمنبوذين الذين لا يتأتى لهم أن يرقوا إلى مرتبة مَنْ فوقهم ويعاملوا مثلهم . . . غير أن هذا النوع من الأديان الوضعية الأرضية ليس هو الذى نتحدث عنه : لأنه من الوثنيات المتخلفة التى ما تزال

تعيش فى جو من الرموز وعدم الوضوح فى رؤية الكون وخالقه وفى جو من التهويمات والتأويلات الشاعرية والشطحات التى يعيش بها من لم يصلوا إلى درجة الرشد العقلى والتدين العلمى الذى يرى الدين علماً والعلم ديناً لأنهما يلتقيان فى الواقع على منهج واحد فى التوصل إلى حقائق العلم وجوهر الدين، وهو منهج الحكم العقلى المبنى على بداهة الفطرة.

ومع ذلك فإن هذا النوع من الأديان الوثنية قد أخذ يقترب على يد المصلحين كالمهاتما (غاندى) وتلميذه (نهرو) من منهج الدين السماوى وتطبيقاته فى إذابة الفوارق بين الطبقات وضمان حقوق الأفراد الأساسية على قدم المساواة.

**طريقة القرآن فى الدعوة للإيمان :**

والذين يريدون أن يأخذوا جماهير الناس بيسر وسهولة إلى الإيمان الفطرى بالله الخالق ورحمته وعدله لا يستطيعون أن يحققوا ذلك كما ينبغى ما دام عذاب تلك الجماهير بالفقر والحرمان مسيطراً على النفوس، لأن الله الخالق إنما دعا الناس إليه وعرفهم بذاته عن طريق التذكير بنعمه وأفضاله عليهم وإمتاعه لهم وصنعه فى الطبيعة من أجلهم . . . وقد أدام تذكيرهم بآلائه التى لا حدود لها ورحمته الغامرة التى يتجلى بوضوح أن بناء الكون كله قائم عليها . . . وجعل عبادته والإيمان به عن طريق تذكر هذه النعم وشكرها، كما قال القرآن : (فَلْيَعْبُدُوا ربَّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، (يا أيها الناس اعبُدُوا ربَّكم الذى خلقكم والذين من قَبْلكم لعلكم تَتَّقُون، الذى جعل لكم الأَرضَ فِرَاشاً والسماءَ بِناءً وأَنزل من السماءِ ماءً فأَخرجَ به من الثمراتِ رزقًا لكم).

وواضح أن توجيه القرآن خطابه للناس جميعاً حينما يذكرهم بنعم الله الأساسية قاطع فى الدلالة على أن هذه النعم لا تخص فرداً أو جماعة أو أمة محدودة منهم بل هى عامة مشاعة لهم جميعاً، فيجب ألا يستأثر بها ويحتكرها فريق منهم لنفسه ويحرم الآخرين فيكون ظالماً طاغياً مبدلا للأوضاع العادلة التى أرادها الله للناس جميعاً . . . كما يجب ألا يرضى ويستسلم الفريق المظلوم

المنهوب دون أن يكافح عن حقوقه الأساسية ونصيبه فى هذه النعم . . . وإلا وقع تحت مسئولية تضييع نفسه وتفريطه فى حقه ، لأن القرآن لا يعنى المستضعفين الذين قبلوا الظلم من مسئولية عدم المقاومة للظالمين ولو بالهجرة من أرضهم على الأقل إن لم يستطيعوا المقاومة الايجابية : ( إن الذين تَوَفَّاهُم الملائكةُ ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كُنْتم ؟ قالوا كنا مُسْتضعَفين فى الأرض . . . قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتُهاجروا فيها ؟ فأُولئك مأْواهم جَهَنَّمُ وساءت مصيرا ) .

**لعنة الحرمان هى سبب الإلحاد :**

وأعتقد أن أشد ما يبطئ بالناس عن الدخول فى رحاب الإيمان الفطرى العارف بالله حق معرفته ، ويعرضهم للفتنة فى الدين والحياة هو عذابهم بالحرمان من نعم الله وأفضاله التى جعلها لهم جميعاً وعمها بعدله ، ولكن الطغاة والأنانيين حجزوها لأنفسهم ومنعوها عن غيرهم فظن الممنوعون المحرومون أن الله هو الذى أراد حرمانهم وإهانتهم وإكرام الأغنياء المانعين .

**رد قرآنى على الأوهام فى أسباب الغنى والفقر :**

وهذا غير صحيح وغير معقول ! وقد بين القرآن هذه القضية بوضوح لا أدرى كيف فات المفسرين للقرآن أن يروه ويوجهوا المسلمين إليه ليصححوا أوضاع حياتهم الاعتقادية والاجتماعية والاقتصادية على مقتضاه ؟ وذلك فى قوله من سورة الفجر :

( فأَمَّا الإنسانُ إذا ما ابتلاه ربُّه فأَكرمَهُ ونَعَّمه فيقولُ ربِّى أَكْرَمنِ . وأَمّا إذا ما ابتلاهُ فقَدَرَ عليه رِزقَه فيقول ربِّى أَهانَنِ . كلاَّ . . . بل لا تُكْرِمُون اليتيم ولا تَحَاضُّونَ على طعامِ المسكين . وتأْكلون التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا . وتحبُّونَ المالَ حُبًّا جَمًّا ) .

وواضح من هذه الآيات أنها ترد على أوهام الناس فى أسباب الغنى والفقر وتبين لهم أن المسألة ليست مسألة إكرام من الله للغنى ولا إهانة منه للفقير وإنما ترجع

أسباب هذه المفارقات فى أحوال الناس بين الغنى والفقر إلى قسوة بعضهم على بعض، وإلى إخلالهم بالأوضاع الطبيعية التى وضعها الله ، لأنه خلق لهم ما فى الأرض جميعاً وأراد الكرامة لهم جميعاً وأمرهم أن يتراحموا ويتعاونوا ويتكافلوا . . . ولكن الظلمة الأقوياء أخلّوا بهذه الأوضاع التى وضعها الله، فخصّوا أنفسهم بما استطاعوا الحصول عليه بقوتهم وظلمهم من نعم الله ومنعوا تلك النعم والإكرامات عن الأيتام والضعفاء والمساكين وأمثالهم الذين لا يستطيعون نيل حقوقهم أو الدفاع عنها أو العمل لكسب رزقهم أو القدرة على كفاية أنفسهم ، ولم يتواص الناس ويتحاضّوا على تنفيذ أمر الله بأداء حقوق أولئك الضعفاء والمساكين فى ماله الذى استخلفهم فيه بل تكالبوا وتذاءبوا وافترسوا أولئك الأيتام والمساكين والضعفاء وكانوا سبباً فى حرمانهم من نعم الله وأرزاقه ، وفى شعورهم بالمهانة وتوهمهم أن الله يريد لهم الهوان بالحرمان؛ وقد أكل الطغاة « التراث » الطبيعى الذى جعله الله رزقاً وكرامة للناس جميعاً أكلاً لمّاً ابتلعوا فيه حق غيرهم وأحبوا المال حبّاً شديداً مفرطاً وجمعوه حلالا وحراماً . . . ثم تناسى الناس أن هذه المفارقات هى من صنع أيديهم وجناية أنانيتهم وجشعهم وقسوتهم ، ولا دخل فيها كما يتوهمون لإرادة الله إكرام الغنى بغناه الذى يجعله برحمته وحكمته وسيلة لاختبار شكره ، ولا لإرادة الله إهانة الفقير بفقره الذى يجعله كذلك وسيلة لاختبار صبره .

إذاً فالقضية فى رأى القرآن هى قضية إخلال الناس بالأوضاع الطبيعية الواجبة بينهم، وهذا الإخلال ينشأ فى رأى القرآن من القسوة والجشع والنهم فى أكل « التراث » الذى جعله الله لهم جميعاً والاستسلام لغريزة التملك وحب المال ذلك الحب الكثير الشديد الذى ينسى الناس أن المال مال الله لجميع خلقه ، ولكن الأنانية والظلم منعاه عن الضعفاء والمساكين فصار الحال كما قال (عمر بن الخطاب) أو (على بن أبى طالب) « ما تمتع غنى إلا من جوع فقير ! »

وكأن القرآن يقول للناس فى هذه الآيات : لم يرد الله تكريم الغنى بغناه ولا إهانة الفقير بفقره ولكنكم أنتم الذين لم تكرموا الضعفاء منكم والعاجزين والفقراء وأهنتموهم وأسرفتم فى حب المال وحجزه لأنفسكم وحدها ، ولو أنكم جعلتم كل واحد منكم ينال من مال الله ورزقه الذى جعله لكم جميعاً ما يسد حاجته لم يقل

بعضكم إن الله أكرمنى وبعضكم إن الله أهاننى ؛ لأن الجميع حينئذ يكونون فى درجة واحدة من الشعور بتكريم الله وعدله ورحمته وكفالته .

أما تعبير القرآن بقوله ( إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ) ، و ( ابتلاه فقدر عليه رزقه ). فتأويله وتفسيره أن من حكمة الله ورحمته أنه يجعل كل شأن فى الحياة الدنيا سواء كان خيراً أم شرًّا وسواء كان من فعل الناس أم من فعل الله مباشرة ، وسيلة لنيل الثواب فى الآخرة إذا نجح الناس فى الابتلاء والاختبار به . وما دام الغنى والفقر شأنين خطيرين من شئون الحياة الاجتماعية وهما نتيجتان كما قلنا لإخلال الناس بالأوضاع الطبيعية الإلهية الواجبة بينهم فقد استعملهما الله وسيلتين للابتلاء والاختبار كما هو الشأن دائمًا فى ابتلائه الناس بعضهم ببعض فى شتى أوضاع حياتهم الدنيا ( وجعلْنا بعضَكم لبعضٍ فِتنةً . . . أتَصْبرون ؟ ) ، ( ونَبْلُوكم بالشرِّ والخير فِتْنَةً ) .

**بيان قرآنى فى العقبة المشئومة :**

وقد اعتبر القرآن الطغيان بالمال والإسراف فى إهلاكه والغرور به وحبسه عن الإنفاق لتحرير المحرومين من الحرية ولإكرام الضعفاء والأيتام والمساكين الذين أصابتهم المسغبة وآلام الجوع والحرمان . . اعتبر ذلك هو العقبة الكؤود التى يشق على الإنسان اجتيازها واقتحامها فى طريقه إلى رضا الله وإلى البعد عن المكابدة والتعب فى السعى إلى نيل الحقوق الطبيعية والنزاع عليها . . . تلك العقبة التى تفسد الحياة وتدمرها بشؤمها المهلك الذى لا ينجى منه إلا العمل الصالح من أجل الجميع والتواصى بالصبر عليه وبتعميم الرحمة والعدالة على الجميع .

ولنقرأ معا من سورة البلد تصويراً رائعًا لهذه المعانى :

( لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِى كَبَدٍ [ أى مشقة شديدة ] أيَحْسَبُ أن لَنْ يَقْدِر عليه أحدٌ . . . يقول أهلكتُ مالا لُبَدًا [ كثيرًا ] . . . أيحْسَب أن لم يَرَهُ أحد . . . ألَمْ نجعلْ له عينين . ولسانًا وشفتين . وهديْناه النَّجْدَيْن فلا اقتحم العَقَبة . . . وما أدراكَ مَا العَقَبةُ ! فَكُّ رَقَبةٍ ، أو إطعامٌ فى يوم

ذى مَسْغَبَة . يتيمًا ذا مَقْرَبَة . أو مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَة . ثم كان من الذين آمنُوا وتَواصَوْا بالصبرِ وتَواصَوْا بالمَرْحَمَة . أُولَئِك أصحاب المَيْمَنة والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المَشْأَمة » .

إذاً فاقتحام عقبة الحياة وتجنب شؤمها يكون فى رأى القرآن الواضح هذه الآيات ، بإشاعة المرحمة ، وبتحرير رقاب الناس من أنواع العبودية والإذلال ، وبتأمين لقمة العيش وأساسيات الحياة للضعفاء والعجزة والقاصرين عن السعى لرزقهم ، وباتقاء الغرور بالمال والإسراف فى إهلاكه وإنفاقه ، فلا يطغى به متبجحًا مفتخراً (يقول : أهلكتُ مالا لُبداً ) . ولا يتغاضى فى الإسراف فيه وإهلاكه عن نظرات الفقراء وحسدهم وحسراتهم وحقدهم ، وعن تفتّح عيونهم وتطلعها إلى نعم الله التى حجزها المسرف لنفسه ، بل يجب أن يتذكر دائمًا أن الله جعل للفقراء عيونًا ترقب فى حسرة حقها فى هذا المال ، وألسنة وأدوات للنقد والحسد والقيل والقال والسخط الذى يصيبهم به الحرمان ، ويصيب الحياة الاجتماعية بالشؤم والدمار كما جعل للغنى المسرف تلك الأدوات ( ولسانا وشَفَتَيْن ) .

**حديث قرآنى فى المصادر الأساسية للحياة :**

وكيف ترسخ هذه الأوهام والأخطاء المشئومة فى أذهان المسلمين مع أن القرآن قد بين لهم نعم الله الأساسية التى يجب ألا يحرم منها أحد لأن بها قوام حياة كل فرد وذلك فى مثل قوله :

( أفَرَأَيْتُم ما تُمْنُونَ ؟ أأنتم تَخْلُقُونَه أم نحنُ الخالِقُون . . . نحن قَدَّرْنَا بينكم الموتَ وما نحنُ بمسبوقين على أن نُبدِّل أمثالَكُم ونُنْشِئَكُم فيما لا تعلمون ! ولقد علمتُم النشأَة الأُولى فَلَوْلَا تَذَكَّرُون ! أفرأيتم ما تَحْرُثُون ؟ أأنتم تَزْرعُونه أم نحنُ الزَّارعون ؟ . لو نَشَاءُ لَجعلناه حُطَامًا فَظَلْتُم تَفَكَّهُون . إنَّا لَمُغْرَمُون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماءَ الذى تَشْربون . أأنتم أنزلتموه من المُزْن أم نحنُ المُنْزلون . لو نشاءُ جعلناهُ أُجَاجًا فلولا تَشْكُرون . أفرأيتُم

النار التى تُورُون ؟ أأنتم أنشأتُم شَجَرَتَها أم نحنُ المُنْشِئون ؟ نحن جَعَلنَاها تذكِرةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوين ، فسبِّح با سم ربِّك العظيم . . . )

وهذا الحديث القرآنى جدير أن يكون هو الأصل فى وجوب جعل المصادر الحيوية الأساسية عامة للناس جميعًا ، وأن يكون أعظم سند للاشتراكية الإسلامية مع الحديث النبوى المشهور : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » .

وفى هذا الحديث القرآنى يمتّن الخالق ويذكر الناس جميعًا بالحياة ومقوماتها المادية الأساسية ، فهو يمتّن أولا بإخراجهم للحياة عن طريق إفرازهم للسائل المَنَوِىّ الذى منه يخلق نوعهم ونسلهم وتمتد سلالتهم ، ثم يمتّن ويذكّر بالمقومات المادية الثلاثة لعيشهم وهى الماء والنبات والنار . . .

فالحياة من غير أحد هذه المقومات المادية الأساسية تعتبر ناقصة غير وافية الأركان الضرورية التى تجعلها جديرة بأن تعاش وأن تقابل بالشكر للخالق على الدخول فيها .

ومن عجائب القرآن أنه يسمى المال خيراً ، وفى هذا إثبات أن الحياة بدونه شر فيقول : ( كُتِب عليكم إذا حضر أحدَكم المَوتُ إن ترك خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين ) أى أن ترك مالا . .

والشعور الصحيح بالحياة وبيد الله الرحيمة فيها لا يكون إلا بتوفير المستوى الضرورى من نعم الله الأساسية لكل فرد . . . فلو بدأ الإنسان حياته فى عذاب الحرمان من هذه النعم واستمر هكذا ، فكيف يشعر بأن دخوله للحياة نعمة يشكر الله عليها ؟ أو كيف يحس برحمة الله وعدله وهو لم ير شيئًا منهما لنفسه ؟ إلا إذا كان ممن آتاهم الله أعلى مقامات ذلك الإيمان والرضا الصوفى المنكر لأى حق للإنسان لدى الله . . . ويكفيه دخوله للحياة ومعرفة الكون وخالقه ، ويرى أن ذلك موجب لشكر الله ولو كانت حياته كلها سلسلة من العذاب .

وكيف يعقل أن يمتّن الله على الإنسان بشىء هو كله عذاب وحرمان ؟ وكيف يدرك الإنسان الصورة الحقيقية لرحمة الله وعدالته ، وهو لم ير فى تجربته الخاصة إلا القسوة والجوع والخوف والإهدار والضياع ؟ !

وقد سجل القرآن العجيب وأعلن أن الله لا يحرم أحداً من نصيبه فى الرزق الذى

به قوام حياته ومتاعه ولو كان كافراً به ؛ ويتضح ذلك من إجابة الله لإبراهيم حينما دعاه أن يرزق المؤمنين من أهل مكة وحدهم ، فرد عليه بأنه سيرزق الكافرين كذلك ، على ما حكى القرآن فى قوله :

(وإذْ قال إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بلدًا آمنًا وارْزقْ أهلَهُ من الثَّمراتِ مَنْ آمنَ منهم باللهِ واليومِ الآخرِ . قال : ومَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُه قليلًا ثم أَضْطَرُّهُ إلى عذاب النار . . . ) .

ولقد كان اختلال هذا الأساس الضرورى للمعيشة المادية أكبر الأسباب فى فتنة أكثر الناس وصراع أفرادهم وطبقاتهم ، وفى حيرتهم وضلالهم الدينى . كما فى قول القائل :

كم عاقلٍ عالمٍ أَعْيَتْ مذاهبُه وغافلٍ جاهلٍ تَلْقاهُ مَرْزوقَا
هذا الذى جعل الأَلبابَ حائرةً وصَيَّر العالِمَ النِّحْرِير. زِنديقَا

وكما وقع ( لإنجلز ) أحد بناة المذهب الشيوعى الإلحادى ، حينما حملته آلام الناس وشقاؤهم بالفقر والطغيان على أن ينكر أن فى الكون إلها يرحم الإنسان غير الإنسان نفسه . . . فيجب أن يدبر وحده وسائل عيشه ، ويصنع قَدَرَه ويحطم كل شىء وكل معتقد يحول دون ذلك .

وإزالة اختلال هذا الإساس هو فى رأيى « نقطة البدء » فى دعوة الناس للإيمان بالله العادل الرحيم وفى قيادة الجماهير إليه وإلى حل « مشكلة الفكر والاعتقاد » و « مشكلة العيش » .

ويجب أن ينتهى الدعاة الدينيون فى ضوء رأى الدين إلى الاتفاق على أولوية حل هذه المسألة مع الاشتراكيين المعاصرين الملحدين حتى يسقطوا حجة إلحادهم الذى كان سببه كما سبق القول هو أنهم وجدوا بعض رجال الدين يجعلونه فى ركاب طغاة المال والسلطة الذين حجبوا ما وضعه الله فى الطبيعة والشريعة من عدالة ورحمة لكل فرد يخرجه للحياة .

**فلنأخذ الجماهير إلى الله بتعميم نعمه عليها :**

وعلى هذا فكل جهد يبذل لإزالة أسباب الحرمان والعوز لدى الجماهير ، ولإشعار الجميع أنهم سواسية فى ضمانات الحدود اللازمة للمعيشة ، وفى تكافؤ الفرص ، هو سعى وجهاد لإقرار الإيمان بالله ، وتطبيق شريعته وإعداد المشاعر الإنسانية لإدراك صداقته ورحمته وعدالته . . . وكل سعى أو تفكير يمنع وصول نعم الله إلى الإنسان أو يضيقها عن الحاجة أو يفسدها ، هوسعى إلى شيوع أسباب الكفر بالله والفساد فى الأرض وتشويه وجه الحياة .

وكثيراً ما قلنا إن الحياة من يد الله هى دائمًا صحيحة رحيمة عادلة ، والإنسان هو الذى يفسدها ويشوهها بالطغيان والطمع فى حقوق الغير واختلاسها واغتيالها والتحكم فيه وإذلاله واستغلاله .

فلولا جشع بعض الأفراد وطمعه وأنانيته وقسوته على غيره لوجدت كل نفس ما يكفيها ويغنيها ويشعرها بنعمة الله ، وما يجعل الحياة أمامها جميلة تستحق أن تعاش ، وما ييسر قيادها إلى الإيمان بالله ويجعلها تسمع وتفهم وتلبى الدعوة إليه ، وقد قرر القرآن أنه قد ( ظَهَرَ الفسادُ فى البرّ والبَحْرِ بما كَسَبَتْ أيدى الناس ) وأن الله قد سمح بظهور هذا الفساد مع أنه ليس من طبيعة الحياة ( لِيُذِيقَهم بعضَ الذى عَمِلُوا لَعلَّهم يَرْجِعون ) . فليس ظهور الفساد فى الأرض نتيجة لإرادة الله ابتداء ، ولكنه نتيجة لعمل الإنسان وليبين الله له عاقبة الخروج على قوانين الحياة الصحيحة وطبيعتها ليسرع بالعودة والرجوع إليها .

ومن هنا نجد صحة النظرة التى ترى أن التأمين المادى لحياة الإنسان يجب أن يسبق كل عمل آخر من أعمال الدولة أو الجماعة ، ونرى أنه كان يجب على الأمم ألا تشغل نفسها بشىء قبل أن تنتهى من حل مشكلات التفاوت الفاحش فى العيش المادى .

**جنايات عصور الطغيان :**

وقد اكتوينا بنيران جنايات العصور التى شاع فيها الطغيان والاستغلال على الدين وعلى قيادة الناس إليه بيسر وسهولة . فقد أشاعت تلك الجنايات الكفر

والفساد حين أشاعت العبودية والفقر . . . وجعلت الحياة تبدو عند بعضهم كأنها مأساة ، وعند بعضهم الآخر كأنها مهزلة مقصودة أو عبث اعتباطى لا حكمة وراءه ، إذ حجبت وجه الله الرحمن الرحيم عن خلقه حينما شغلت عيونهم بدموع الفقر وقلوبهم بآلام الحرمان والأحقاد وعقولهم وأجسادهم بالتفكير والسعى والكدح لتوفير لقمة العيش وانتزاعها من فم الطغيان والزحام على موارد الحياة ، وأورثتهم الشك فى كثير من الحكم الإلهية التى ينبغى ألا تغيب عن تفكيرهم . وخلقت لهم مشكلات كثيرة فى فهم العلاقة بينهم وبين ربهم وقضائه وقدره فيهم ، وحملت الكثيرين منهم على أن يثوروا على كل مواريث العصور السابقة التى شاع فيها الاستبداد والطغيان والاستغلال ، ومنها ميراث الدين ؛ إذ وجدوا أن رجال الدين المحدودى الأفق أو الجبناء أمام طغاة المال والسلطان قد تحدثوا بلسان الدين لإقرار المظالم الاجتماعية والسياسية ، وفلسفوا وبرّروا تحمل آلامها وتحسين صبر الجماهير عليها ، وعدم الثورة والنضال لانتزاع حقوقهم من غاصبيها ، حتى صارت طرق الحياة مليئة بالأشواك والعقبات والمهالك التى تجعل الأمم تسير فى عناء وذل وخوف أمام الرعاة الجهلاء القساة على نحو ما قال المتنبى فى تصويره الرائع الصارخ :

فى كل أرض وطئتُها أُمَمٌ  تُرْعَى بعَبْدٍ كأنها غَنَمُ

**لا تمنعوا عدل الله عن القادمين للحياة :**

بهذه النظرة النافذة إلى صميم المشكلة ينبغى أن يتلقى الفرد الإنسانى فى أول دخوله إلى الحياة ما يشعره بترحيب الله به ورعايته له . وأول أسباب هذا الشعور هو توفير الوسائل اللازمة لعيشه المادى والمعنوى فى يسر وسهولة ، وبحيث تكفل له تكافؤ فرص الحياة مع الأفراد الآخرين فى السعى إلى نيل نعم الله ومواهبه الأخرى التى تزيد على المستوى الأساسى اللازم .

ونحن نرى مصداقاً لهذه النظرة فيما يحدث فى أطوار نشأة الجنين السوى الذى يخلق فى ظروف فطرية سلمت من الاعتداءات الخارجية بفعل الأب أو الأم أو البيئة . . . فنرى يد الله الخالق تهيئ للأجنّة الأسباب الكاملة لنموها المادى من أجسام أمهاتها فى ناموس ونظام واحد ، بتوفير أسباب الغذاء والأمان والحراسة

الشديدة على صحتها لمقاومة أعدائها ؛ كالجراثيم الضارة والأخلاط والسموم التى تحيط بها فى بطون أمهاتها ، حتى إذا ولدت وخرجت للدنيا جعل الله غذاءها وأمانها فى لبن أمهاتها ورعاية أبويها .

فإذا كان الأبوان قد غدر حقهما وظلما فى الغذاء والأمان وتكافؤ فرص الحياة ، فهنا يكون قد حدث أول الاعتداء على أسس الحياة التى أعطاها عدل الله سليمة لكل فرد. وقوة الشر التى فى المجتمع الإنسانى هى القوة المعتدية التى أفسدتها وشوهتها وأخرجتها عن خط سيرها الطبيعى .

**لا ملام على الأقدار :**

وفى هذه الحالة لا تلام الأقدار التى أعطت الناس جميعًا بالسَّوِيَّة من وسائل الحياة الأساسية ، وإنما اللوم على الذين يعتدون على خط سير هذه الأقدار ويخرجونها عن العدل والرحمة بأنانيتهم أو جشعهم أو ظلمهم أو سفههم أو إفسادهم للحياة بإخلال أوضاعها الاجتماعية بالترف والبوار والإسراف فى جانب ، والفقر والحرمان والعجز والضياع فى جانب آخر .

وكل من يحاول إزالة هذا الاعتداء الذى شوه وجه الحياة وحجب رؤية عدل الله ورحمته وحمل الناس على الحيرة والكفر والشك فى وجود العدالة الإلهية ، هو لا ريب يستحق التقدير والتشجيع والترحيب .

**التماس العذر لذوى الشطط :**

وإذا كان بعض هذا الفريق قد اشتط وخرج فى محاولته هذه عن التفكير الدقيق لحل « مشكلة العيش » ، وحطم من أجلها المواريث الصحيحة للفكر والاعتقاد بعد أن اختلط عليه الأمر فيها بضعف بعض رجال الدين وسيرهم فى ركاب طغاة السلطة والمال ، وجهلهم فى تفسير جوهر الدين ومعرفة اتجاهاته الحقيقية لإنصاف المظلومين وإقرار عدل الله كما هو فى الطبيعة والشريعة ، وتحميل الدين مواريث ودعاوى خرافية ووثنية عن ذات الله وأقداره وعلاقاته بالإنسان . . . أقول إذا كان هؤلاء المحاولون قد اشتطوا وضلوا فى الوصول إلى الحل الصحيح لمشكلة الفكر والاعتقاد ، فيجب علينا نحن المسلمين خاصة أن

نفترض فيهم حسن النية ونبالة القصد ولا نسرع إلى الوقوف فى المعسكر المضاد لهم فنجعلهم يسلكوننا فى سلك واحد مع الذين كانوا هم السبب الحقيقى فى خروجهم على فكرة الإيمان بوجود الله وعدله ورحمته حينما قدموا إليهم الإله فى صورة خرافية تناقض العقل فيرفضها ، وحينما وقفوا باسم الدين فى صف طغاة المال والسلطان المهدرين لحقوق الشعوب والأفراد ، وحينما خدّروا الشعوب بأفيون الصبر وعدم الثورة والمقاومة لدفع المظالم وتصحيح الأوضاع حتى تكون كما هى فى شريعة العدل شريعة الله الخالق الرحمن !

**افتراض واجب لحسن نواياهم :**

أجل يجب أن نفترض أن الاشتراكيين ، حتى الملحدين منهم ، مدفوعون إلى ثورتهم العالمية ضد الظلم الاجتماعى والطغيان السياسى بنوايا طيبة وإخلاص للبشرية وللكادحين خاصة، وأنهم يرون طريقهم هو طريق التقدم الإنسانى ، ثم لنا بعد ذلك أن ننقد ما نراه فى مذهبهم من أخطاء وأن ننكر عليهم أشد الإنكار رأيهم فى أن الانتصاف للطبقة الكادحة يستلزم رفض العقيدة فى الله الخالق سيد حكومة هذا الكون الكبير . . . ويستلزم إهدار حقوق طبقات المجتمع الأخرى .

**اعتراف واجب بتأثيرهم :**

كذلك يجب أن نعترف بأن صيحة الاشتراكيين قد تركت أعظم الآثار فى عصرنا هذا ، بتوسيع دائرة الدعوة إلى العدالة والمساواة ، وبإسراع الدول حتى الرأسمالية منها إلى الأخذ بأسباب الحياة الكريمة اللازمة للأفراد جميعاً وتكافؤ الفرص أمام الجميع ، وإلى إقامة الحياة الاقتصادية على الأسس العادلة المعقولة أو القريبة منها ، وإلى الارتفاع بقيمة العمل والعمال وتأسيس الأحزاب والجماعات والدول والفلسفات باسمهم ، وإلى توجيه النظر إلى قيمة المادة وقيمة المسألة الاقتصادية فى الحياة والاستعانة بذلك فى سير الحضارة والعلم وتقدم الإنسان .

وقد سادت ( الروح الاشتراكية ) مشاعر الجماهير فى كل مكان ، لأنها تجمع كل تطلعاتها فى آفاق الحريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهى الحريات التى تهفو إليها الشعوب المظلومة والمستعبدة والمستغلة كوسيلة لإنقاذها مما هى فيه ،

كما ترى فيها الشعوب الحرة المتقدمة ضماناً لاطراد حريتها وتقدمها ودوام سيطرتها على مصائرها .

**لقاء وحوار مفتوح معهم :**

وكان يجب علينا نحن المسلمين أن نكون أول من يرحب بهذا الاتجاه الاشتراكى العصرى مع رفض ما فيه من إلحاد وانحراف ومغالاة ، وأن نقدر البواعث عليه ، وأن نواجه الدعاة إليه بالتفهم والسعى إلى إفهامهم خطأهم فى إنكار وجود الله وعدله ، وإلى إقامة حوار معهم ؛ لأننا أول من دعا إلى هذا الاتجاه باسم الدين ، وأول من نظمه وطبقه تطبيقاً ناجحاً معقولا ، وأول من دفع الحركة التاريخية إليه ، وأول من حماه بالقوة العسكرية من ارتداد المتحدّين له ، وذلك فى الحرب التى أعلنها الخليفة الأول أبو بكر على مانعى الزكاة التى كانوا يؤدونها لمحمد رسول الله .

فالدعوة إلى الاشتراكية المعاصرة هى فى بعض جوانبها امتداد بأسلوب العصر لدعوة الاشتراكية الإسلامية الماضية التى أعلنت الإيمان بالإنسان الكلىّ وبالفرد وكرامته وقيمته ، وكفلت حقوقه الفكرية والمدنية والمالية والسياسية ، ودعت إلى تأمين حاجاته المادية التى تستأثر بشعوره وفكره ، وخاصة فى أول دخوله للحياة وتَفَتُّح فهمه وتصوره للدين تبعاً لها ، وغرست فى نفوس الجماهير الإيمان بالحق المعلوم للسائل والمحروم ، وأن « الفقر كاد أن يكون كفراً » وأن « جَهْد البلاء كثرة العيال مع قلة الشىء » ، وترجمت عن تطلعات المجتمع الإسلامى وغيظه من الفقر بلسان أحد خلفائه الراشدين من أهل بيت النبى هو ( على بن أبى طالب ) بقوله : « لو كان الفقر رجلا لقتلته ! » وبلسان خليفة آخر هو ( عمر بن الخطاب ) فى قوله : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ورددتها على الفقراء ! » .

وما كان للإسلام وهو دين العقل والحكمة أن يفوته إدراك أن المسألة الاقتصادية حينما تختل أوضاعها وتفسد تكون كالأفعى* التى تنهش قلوب الأفراد والجماعات وتسممها وتمزقها بالصراعات ، وتردّها إلى حياة الغابة والافتراس . وقد سبق بيان رأى القرآن فى أن اختلالها هو العقبة المشؤمة فى طريق الإنسان .

---

(*) انظر فصل ( المسألة الأفعوانية ) من كتاب ( أومن بالإنسان ) للمؤلف .

**لو كان الإسلام معروفاً لهم :**

وبدون شك لو أن الفكرية (الأيدلوجية) الإسلامية فى الطبيعة والإنسان والخالق وفى المسألة الاقتصادية قد عرفت لدى واضعى « المادية الجدلية » ، ولو أن طريقتها المنطقية العلمية فى التوصل إلى الاستدلال على وجود إله الطبيعة وكمالاته وقيمة الإنسان ومصيره . . . ولو أن الاشتراكية الإسلامية ونظريتها فى أن المال مال الله لجميع خلقه ، وفى تحريم الربا والاحتكار والتحكم فى السلع وفى الملكية العامة والخاصة ، وفى قيمة العمل وشرفه وأنه الأصل فى قيم الأشياء والسلع ، وفى إزالة الفوارق المصطنعة بين الطبقات بالإخاء والمساواة ، وفى الإلزام بحق الفرد وحق الدولة وحكم الشورى ، وفى وجوب الكفاح لمقاومة المظالم وإقرار الحقوق وعدم الاستسلام والاستخذاء أمام الطغيان ، وفى الحرب والسلام والتعايش السلمى ، وفى التكافل الاجتماعى ، وفى التعاون فى نطاق الدولة وفى المحيط الدولى . . . أقول لو أن هذا كله كان معلوماً لواضعى المذهب الاشتراكى المنكر لوجود الله لغيروا من نظرتهم إلى الدين ومعاداتهم له ، وما وجدوا ضرورة لتخريب حياة التدين وشجبها باعتبار الدين فى زعمهم مهدراً للعقل ومخدراً للشعوب وصارفاً لجهادها وكفاحها لنيل حقوقها فى سعادة الأرض قبل سعادة السماء ، بل لاستعانوا بتلك المبادئ الإسلامية وتطبيقاتها التاريخية فى تأييد دعوتهم الاشتراكية ، بل لتبينوا أن الإسلام فى حرصه على حل مشكلة العيش كان دائماً حافزاً للطبقات المظلومة والكادحة على أن تأخذ حقوقها المقررة المعلومة ، لا مخدراً لها وصارفاً لهممها وكفاحها عن المطالبة بها وتحقيقها ولو بالقوة . . . بل لقد جعل الإسلام الفرد مسئولا عن استضعاف الأقوياء له ، وقد ربط نجاته من عذاب الآخرة ببراءته من أن يستسلم للظالمين ويمكنهم من إخضاعه وإهدار حقوقه ، وجعل الجماعة مسئولة عن ضياع أى فرد فيها كما جعل الفرد مسئولا عن الجماعة .

**جهلوه فعادوه :**

ولكن مع الأسف الشديد حين وجد واضعو (المادية الجدلية) والشيوعية أن العقل الدينى الذى احتكوا به منحرف عن الصواب فى حل مشكلتى الفكر والعيش ، وفى تصور الطبيعة والخالق والإنسان ، وأن الإله الذى تقدمه الكنيسة والمعبد فى

الغالب هو غير إله الطبيعة ، ظنوا من جهة أن الإسلام كغيره من الأديان التى احتكوا بها وخبروها ، ولم يفطنوا من جهة أخرى إلى أن هذا الانحراف لا يرجع إلى طبيعة الدين ولكن إلى قصور رجاله والتصاق الجهلة والمتخلفين به ، وإلى تسخيره لذوى السلطان .

## آفتهم تفريغ القلوب من الإيمان :

وكانت هذه الظروف التى أحاطت بواضعى ( المادية الجدلية ) سبباً فى أن تصاب الاشتراكية الملحدة بأشد آفاتها وهو إنكار وجود الإله الخالق وإنكار الدين جملة وتفصيلا تبعاً لذلك . وكان هذا من سوء حظ الإنسانية ومن أسباب زيادة شقائها وتطويل مراحل انتقالها إلى ما يجب أن تصير إليه وتعيش به من طمأنينة وسعادة نسبية تسمح بها طبيعة هذه الدنيا . . . لأن الشيوعية الملحدة قد أضافت بهذا إلى المذاهب الفكرية والأديان مذهباً أو ديناً آخر مجرداً من روح الكون وعقله ، قد زاد عدد الصراعات الموروثة بين المذاهب والآراء القديمة وضاعف من شقاء الإنسانية بالحروب بين الأمم الشيوعية والأمم الرأسمالية .

فالمادية الجدلية وتطبيقاتها فى الشيوعية ليست إلا ديناً جديداً وإن ظنت أنها ضد الأديان .

## لو أعلنوا كفاحهم باسم الله :

ولو أن الاشتراكيين عموماً جاءوا إلى الناس عن طريق الدين الموروث ، وباسم الله العادل الرحيم الداعى إلى العدالة والتكافل والمساواة بين الناس ، وجعلوا شعارهم فى هذا العصر « الخبز والعدل للجميع بأمر الله ! » قبل أى شىء ، وحشدوا قواهم وعبأوا نشاطهم ليجعلوا هذا الشعار هو رسالة الدين كله فى هذا العصر . . . إذاً لاقتحموا بسرعة حصون الرأسمالية والاستغلال والإذلال ، ولأعلنوها حرباً مقدسة بكل إمكانات الدين وطاقاته الهائلة فى تعبئة القوى الروحية وإثارة الشجاعة والنخوة والفداء والبذل والإصرار والاستشهاد . . . ولدخلت الإنسانية كلها بذلك إلى عصرها الذهبى فى الحضارة الكاملة للروح والجسم .

**حان اعترافهم بسبق الدين :**

وقد صار لا يليق بالاشتراكيين المثقفين الملحدين أن ينكروا أن الدين كان أول مرسل لصوت الدعوة إلى العدالة بين الناس، وأول منظم لأدوات تنفيذها، واول مثير للشعور بالرحمة لبؤس البائسين، وللشعور بوجوب الانتصاف للمظلومين، وأول دافع إلى قمع شح النفس وإلى سخائها وإيثارها وإلى بذلها مالها طواعية وإلزاماً للمحتاجين . . . وكل أولئك من غير أن يصيب النفوس بأشد آفة من آفات الاشتراكية الملحدة وهو تفريغها من التفكير والاعتقاد فى الله الخالق وصرف جهودها كلها إلى التفكير فى هذه الحياة الدنيا وحدها مغلقة النوافذ الطبيعية التى فى العقل والقلب ليتطلعا منها إلى أهم مسألة يرى الإنسان أنه ما جاء إلى الحياة إلا من أجلها ، وهى التعرف إلى سيد الكون والطمأنينة على مصير الإنسان ومصير الكون ، لأن الإنسان عند نفسه أكبر وأعظم من أن يقصر حياته على التفكير فى حاجاته المادية ووجوده المؤقت هنا فحسب . . . إذ هو عند نفسه ليس حيواناً سائماً يقنع بملء بطنه واجترار طعامه ومتاعه المادى، ويرضى عن حياته إذا وجد المرعى حاضراً . ودليل ذلك أن المترفين الذين يجدون كل ما تشتهى أنفسهم لا تنتهى رغباتهم عند حد، بل هم دائماً يسأمون ويتململون حاضر حياتهم ويتطلعون إلى غيره ويطلبون دائماً غير ما يقتنون .

فطرة دافعة ونهم لا يشبع ونزوع نفس تسير دائماً إلى المجهول سعياً إلى أمر أعلى تحس وتشعر أنه فوق حياتها ، وأنه سر وجودها وأنه أنسها الحقيقى وسط أهوال الحياة .

**حل العقدة بقطعها عجز خطير :**

وإذا كان من العجز ألا يجد الشيوعيون الملحدون حلا ( لمشكلة العيش ) إلا على منهج فهمهم فى وجوب تحطيم فكرة الإيمان بالله الخالق لأنهم وجدوا تناقضاً بينها وبين مقتضيات منهج فهمهم المذكور الذى شاءت الأقدار ألا يطلعوا قبل وضعه على الصورة الكاملة الجامعة فى الإسلام لحل « مشكلة العيش » وحل « مسألة الفكر والاعتقاد » . . . فإنه كذلك يكون عجزاً منا نحن المسلمين

وتقصيراً قبيحا الا نقدم لهم الصورة التى فى أذهاننا من حلول هذه المشكلات والتناقضات ، وهم عندنا كما سبق الفرض طلاب حق لمصلحة الإنسانية وليسوا متعنتين متعصبين لرأى إذا ما ظهر بطلانه .

وإن عجز الشيوعية عن أن تحل « عقدة » الفكر والدين إلا « بقطعها » على طريقتها الخاصة فى « المادية الجدلية » التى تنكر الثنائية فى الكون بين الإله الخالق وبين الطبيعة ، ولا ترى غير المادة إلهاً خالقا ومألوهاً مخلوقاً فى وقت واحد . . . هو لا شك عجز خطير ارتد بها إلى ما يشبه عصر عبادة الإنسان البدائى للقوى الطبيعية عبادة مباشرة ، وانحط عن الأفق الأعلى الذى ارتقى إليه العقل الإنسانى ورآى من قممه الأبعاد الفسيحة لنفسه وللكون مع رؤية الله والملأ الأعلى . . . تلك الرؤية الممثلة فى ذلك القول العظيم للقرآن :

( شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إلا هُوَ ، والملائكةُ وأُولُو العِلْم ، قائماً بالقِسْطِ. لا إِلَه إلا هُوَ العزيزُ الحكيمُ ) .

وبهذا القول جعل القرآن شهادة العقل البشرى أحد معايير الإثبات واليقين مع شهادة الله والملأ الأعلى على الحقيقة العظمى وقضية الكون الكبرى قضية الإله ووحدانيته وعزته وقوته وحكمته البالغة ورحمته الغامرة وعدالته فى إقامة الوجود بالقسطاس المستقيم .

وقد أثار ذلك العجز الخطير على الشيوعية الملحدة عداوات جميع النفوس المستعلية التى لا ترى أن إشباع الضرورات المادية يستحق أن يكون سبباً فى إهدار الحاجات الفكرية والروحية التى تجعلها تحس بتفردها وامتيازها بين الكائنات الأخرى ، وترضى ويطيب خاطرها أن تخرج عن كل المتاع المادى بل عن الحياة ذاتها تضحية واستشهاداً فى سبيل تلك المعانى العليا التى تَيَّمت قلبها وملكت فؤادها قديماً وحديثاً ! !

## نبْعٌ من روح الكون فى جفاف المادة :

ومن أين للنفس الإنسانية الإحساس بهذه المعانى العليا ؟ من أين لها هذا السمو والتطلع إلى معانى الحق والشرف والجمال وجميع المثل العليا ليكون لها هذا الولوع والتَّولُّه فى هواها حتى الموت ؟ هل كل أولئك إلا من نبع روح الكون

وسيده الذى وضع الفكر والخيال والضمير فى بناء الكائن الإنسانى ليتلقى بها فيض ذلك النبع الأعلى من الدين والعلم والفن ، ويعيش به ويتذوقه وسط ذلك الجفاف المادى ويأتنس برحمته وصداقته وسط القوى الطبيعية الجبارة العمياء البكماء الصماء . . . ويرى يده تمتد إليه بين هذا الجبروت لتمسح على قلبه بالطمأنينة والإدراك والفهم لما يحيط به من ألغاز الكون ؟! إن عقل الكون وسيده كالقطب المغناطيسى ، تتجه إليه العقول والقلوب كما تتجه إبر البوصلات إلى ذلك القطب . . .

## هل يباع الذهب بالتراب ؟!

وبعد ، فخلاصة القول : إنه يحق للشيوعيين أن يجادلوا ويفلسفوا ما شاء لهم الجدل والرأى والكفاح لحل « مشكلة العيش » على أية صورة ترضاها الجماعات البشرية باختيارها مهتدية بتجاربها لتحقيق العدالة وضمان زيادة الإنتاج واطراد التقدم . . . فذلك لهم ولا لوم عليهم فيه ولا عداء لهم من أجله إلا من الطغاة والمستغلين . . وقد سبقهم الإسلام إلى هذا الاتجاه بأمر الله وبكفاح مرير وتشريع كامل وتنظيم دقيق للزكاة فى جميع الأموال .

ولكن أولى بهم وأنجح لمساعيهم التقدمية وأقرب إلى إيمانهم بالإنسان وأسرع فى وصولهم لهدفهم ، أن يعترفوا بالحقيقة العقلية الفطرية الكبرى وهى الإيمان بالله الخالق كما تصفه الطبيعة ويتحدث عنه العلم والقرآن ، وبامتداد الحياة معه فى دار الجزاء العادل والكمال المطلق والدوام الأبدى . . . فإن ذلك الإيمان هو اللائق المتسق مع وضع الإنسان الجديد وعلمه وقدرته ومكانته فى الكون ، وهو الثراء الأعظم للإنسان .

ولا شىء غيره يستطيع أن يعطيه الطمأنينة والسعادة ولو كان ملء الأرض متاعاً . . .

أما أن يملأوا بطنه وجيبه ويفرغوا روحه وقلبه . . . فذلك ضياعٌ وصفقة خاسرة ، فيها بيع للذهب بالتراب ، وللنور بالظلمات . . . !

# ظهور الاشتراكية العربية فى المجال الدولى

« إن الجماهير المسلمة من جماهير الأمة »
« العربية ، وهى الأغلبية العظمى على الأرض »
«العربية ، تعتز كل الاعتزاز بدينها ، وتتشرف »
«بالانتساب إليه ، وتتمسك برسالته مؤمنة ، وبحق ، »
« أنها دعوة إنسانية ومساواة وسلام » .

من خطاب للرئيس جمال عبد الناصر فى حفل أقيم للرئيس السوفييتى ( كوسيجين ) بالقاهرة فى يوم ١٠ مايو سنة ١٩٦٦ .

إن ظهور الاشتراكية العربية بأسسها الفكرية الإنسانية ومنهجها العملى المتمثل فى « ميثاق العمل الوطنى » وفى التطبيقات الاشتراكية المعتدلة ، وسط معترك الآراء والمذاهب المعاصرة التى تتجاذب عقول الناس ويحاول كل منها أن يسيطر عليها ، ربما يكون فيه للناس تأويل للأمر العظيم الذى هم فيه مختلفون . . . ألا وهو حل مشكلتى العيش والفكر !

والمكان الذى تنبثق منه الاشتراكية العربية — الشرق الأدنى — مرشح دائمًا على مدى التاريخ لأن ينبثق منه الحل الذى تلتقى فيه عناصر الآراء والمذاهب المغالية المتطرفة وتختلط وتتفاعل ويتهافت منها ما ليس صالحًا للبقاء ، ويمكث فى الأرض ما هو صالح للدوام والاستمرار ، ويخرج من ذلك كله الرأى المتعادل المتوازن الذى يرضى جميع الأطراف لأن فيه أحسن ما عند جميع الأطراف . . .

ويدرك الراصدون للحياة الشاعرون بوقع خطوات سيرها بالناس ، المستقبلون لإرهاصاتها بما فى أعصابهم من أجهزة للاستقبال ، أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ونتائجها قد هيأت الأشخاص والظروف والأحداث والمناسبات لتجمع الأنظار على هذه المنطقة التى تنبثق منها الاشتراكية العربية بآرائها المعتدلة فى السياسة والاقتصاد والفكر !

وقد دفعت الأقدار إلينا أحداثاً عظمى ومذاهب كبرى وجعلتها تضطرب وتتصادم حول ديارنا وعقائدنا ، وصرنا مسوقين إلى معركة فاصلة فى تاريخنا بل فى تاريخ الإنسانية كلها .

أجل لقد تحول موقفنا السياسى والفكرى بين الشرق والغرب فى هذه الأيام إلى إرهاصات رسالة عالمية ينشدها ضمير الإنسانية ويتمنى عمومها روادُ السلام والحرية والعدالة فى عصر الذرة عصر القدرة والخطر فى مجالات التكوين والتخريب والانطلاق فى الفضاء الكونى . . . فنحن رواد حق وإيمان وعدالة وحرية وسلام وتقدم لجميع الأمم ، وقد مضينا إلى هذه المطالب الإنسانية ، فاعتنقنا الحياد وعدم الانحياز والبعد عن مناطق التأثير وتغليبِ فريق على فريق والدعوة إلى السلام فى عصر القدرة الإنسانية وأخطارها .

ويريد منا هذا الموقف الفاصل أن نَعيَه حق الوعى ونعيَ له قوانا وإمكاناتنا الفكرية والمادية ، ونتجرد له بكل عزائمنا ، ونذهب إليه فى تفان واستشهاد وتفهم أنها معركة مفروضة علينا ، تختارنا الأقدار لخوض مثلها فى الساعات الفاصلة على مدى أدوار التاريخ .

وقبل المضى إلى هذه المعركة ينبغى أن نختبر أسلحتنا ونبلو ما عندنا من الرأى، لنرى مدى ما ينطوى عليه من صلاحية ، ثم نجلوه للشرقيين والغربيين ليروا أننا لسنا متعصبين ولا جاهلين ولا متخلفين حين نأبى أن نسير وراءهم فى الأودية إلى سلكوها معتسفين .

وقد كانت الاشتراكية العربية عند كثيرين من الناس عنواناً غامضاً مختلطاً بظلال من المذاهب الاشتراكية الأخرى ، بل إنها كانت متهمة لدى بعض الأوساط اليمينية هنا وهناك بأنها ضالعة مع الشيوعية المادية . وكلما زادت العلاقات والصداقات الفنية والاقتصادية والعلمية بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفييتى ، زاد اتهام تلك الأوساط وظنت أن الاشتراكية العربية قد تورطت فى تلك الصداقات ولن تستطيع الاحتفاظ طويلا باستقلالها ورأيها ، ولا تلبث أن تأخذها الشيوعية بشِباكها . . .

وأول ما بدا من ظهور الاشتراكية العربية وتميزها واستقلالها ويقظتها ، كان

عندانحراف الثورة العراقية تحت تأثيرعملاء الشيوعية فى عهد (عبد الكريم قاسم) عن خط الأيدلوجية العربية العامة التى تحتفظ دائماً بعناصر الاعتدال والإيمان بالله وبالإنسانية وحرياتها وشرف الضمير والإحساس برحم الحياة بين أبناء الحياة . . . وعدم القسوة على المخالفين ، وعدم تقليد الغير فى الشر تقليد القرود والببغاوات كما وقع فى العراق حينئذاك . . . مما جعل الاشتراكية العربية تهتز أعماقها اهتزازاً ، غضباً وإنكاراً لما بدا من انحرافات دموية وفكرية شنيعة فى الثورة العراقية . . .

وكان من آثار هذا الانحراف أن بدأ الاشتباك الجدلى بين الاشتراكية العربية وبين عملاء الشيوعية ، وكان ذلك أول محك لأصالة الاشتراكية العربية وأول ظهور لمعالم استقلالها الفكرى والمنهجى .

وقد أشفق كثيرون عليها من هذا الاشتباك الجدلى حينذاك قبل أن تتبلور نظرياتها وتتضح معالمها حتى لدى كثيرين من العرب أنفسهم . . . ولكن تبين أن الأقدار أعظم شفقة على الاشتراكية العربية حيث اختارت الزمان والمكان المناسبين لمعاركها مع قوى الإسراف والتطرف ، إذ أن عملاء الشيوعية لم يُبْدوا مقاتلهم للطاعنين ولم يكشفوا عن شناعاتهم وما يستكن فى أعماقهم من الوحشية ، كما أبدوها فى العراق! فكان ذلك من أعظم أخطائهم فى فهم الوعى القومى العربى وهو فى قمة انتباهه ولهفته على مصيره فى العراق . . .

وقد ضيعوا على موسكو بذلك كثيراً من مكاسبها الجمة التى كسبتها فى العالم العربى والعالمين الأفريقى والآسيوى منذ تسليح الجمهورية العربية المتحدة وإمدادها بالمعونات الفنية والقروض والخبرات بدون قيد أو شرط ، وقد شاركتهم موسكو فى ذلك الخطأ ، إذ لم تحسب حساب وقع أفاعيلهم وشناعاتهم وقسوتهم وتنكيلهم فى القلب العربى بجميع طبقاته وثقافاته . . . فكان أن صدم الجميع وارتسمت فى أذهانهم صور عن طبيعة السلوك الشيوعى والتفكير الشيوعى ، وخاب ظنهم فى دعاوى القوم بأنهم إنسانيون يحترمون الحريات ويطلبون العدالة ويمدون أيديهم للعرب بالمساعدات مع التقدير والفهم لطباعهم وأخلاقهم ومع عدم التطلع إلى السيطرة عليهم كما قال ( شبيلوف ) فى خطابه بمصر بقرية ( برنشت ) عند بدء نشوء علاقات الصداقة الروسية العربية .

وكانوا يصرون على تكرار الأخطاء حين يطلقون أجهزة الدعاية الشيوعية تشن حملتها على الجمهورية العربية المتحدة والاشتراكية العربية مستندين إلى أخطاء فى التقدير بجرائم الخارجين على الولاء لأمتهم المتآمرين على وطنهم، مهما كانوا على صواب فى آرائهم .

غير أن هذه الأخطاء كانت فرصة للاشتراكية العربية لتؤكد استقلالها وتنفى عن نفسها تهمة التبعية ولتجدد تحذيرها للمتلمسين سبيلا إلى الغدر بها ونقض عهدهم معها باحترام حريتها واختيارها فى تشكيل حياتها كما تريد .

ولعل من التفاؤل الواجب أن نظن أن احتكاك الشيوعية بالاشتراكية العربية سيفيد الأولى ويعدّل من تطرفها ويردّها إلى فهم الأسس الإنسانية التى لا غنَاء فى أى نظام لم يقم عليها ، إذا ما تفتحت لقبول الصواب من تجارب الغير ولم تتعصب وتتقوقع وتغلق على نفسها المنافذ فلا تنتفع بجهود الغير ، لأن الاشتراكية العربية قد تفتحت لقبول كل ما هو حق وصالح من المذاهب والآراء لدى جميع الأمم والشعوب ، ورأت على الطبيعة المعركة الدائرة بين الشيوعية والرأسمالية منذ أكثر من خمسين سنة ، وتبينت أخطاء الطرفين والثغرات التى فى بنائيهما ، وهى عازمة أن تمضى مع كل حق وصواب إلى آخر المدى الذى تسمح به معايير الصدق فى الفكر .

وربما تكون الاشتراكية العربية آخر نماذج التفكير الإنسانى المهتدى إلى حل مشكلات الفكر والعيش والاعتقاد والسياسة ، المعترف بوحدة الإنسانية كلها برغم اختلاف أنواعها وألسنتها ، والآخذ منها كلها .

فنحن لسنا متخلفين عنهم كما يتوهمون ، وكما عبر الرئيس خروشوف فى حديثه إلى وفد مجلس الأمة بالجمهورية العربية المتحدة ، وإنما نحن أكثر تحرراً من أن نسجن أنفسنا وعقولنا فى تفكير معين سواء كان وافداً إلينا من الخارج أم ناجماً من بيئتنا وحياتنا . ونحن نحرص دائماً على أن نُطيف بكل منابع الفكر ومَصابّه ، لنرى هل من جديد يأتى به قانون الصيرورة والتطور . . .

تلك طبيعتنا الأبدية اكتسبناها من موقع وطننا الكبير المتوسط بين مواطن الأمم والشعوب ، ومن مخالطتنا لهم جميعاً فى تفتح وقابلية للأخذ والعطاء ، ومن طبيعة

ثقافتنا المتعددة الجوانب المستمدة من كل ثقافات العالم .

أما الثقافة الشيوعية مثلا فى روسيا فإنها مفروضة مغلقة مقطوعة عن روافد الثقافات الأخرى . . . فأهلها معذورون حينما يصدرُون فى تفكيرهم عن نمط واحد لا يسمح برؤية غير الآفاق الفكرية الروسية ، ولذلك صاروا يمثلون طرَفًا أقصى بحكم عزلتهم الجغرافية والفكرية .

وأود أن أذكر أن اعتزازنا بمذهبنا واشتراكيتنا لا يمنعنا من الاحترام والتقدير للجهود الجبارة المتواصلة مدى خمسين سنة ، التى بذلها الشيوعيون فى هذا القرن ليجعلوا شعاره وبناءه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى قائمًا على إنصاف الطبقة العاملة ، وهى الكثرة ، وعلى دفعها إلى المشاركة فى الحكم مشاركة تمثل دورها الحقيقى فى واقع الحياة .

والحق أنهم استطاعوا أن يملأوا الدنيا ويَشْغَلُوا الناس وأن يطبعوا هذا العصر بطابع التفكير الاشتراكى على تفاوت فى درجاته ، وأن يحطموا كثيراً من الأشكال الاقتصادية والسياسية الظالمة ، وأن يتركوا فى الأرض فى هذه الحقبة « دِيناً » ماديًّا استطاع أن يستبد بكثير من قلوب البشر وعقولهم ويجندهم له ويحملهم على الاستشهاد فى سبيله بحرارة وإصرار . .

ولسنا نبحث الآن هنا هل هم على صواب أم على خطأ . . . وهل تستمر وتدوم آثار مذهبهم كما دامت آثار الأديان ؟ فلذلك بحثه المستقل فى بعض فصول هذا الكتاب .

والحق كذلك أن مذاهب الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد لم تتأثر فى هذا العصر فى كل الأمم بمذهب من مذاهب العمل والجدل مثل ما تأثرت بالشيوعية المادية . . . مما جعل التفكير المادى يغزو جميع برامج الأحزاب والمدارس والدعوات والجماعات .

وحسبها أنها كونت من أمم الأرض أحد المعسكرين الكبيرين اللذين يقتسمان النفوذ فى العالم ويتصارعان على امتلاك قياده .

ولسنا نوافق على أن نجعل فى ميزان التقدير للشيوعية ما فاخر به الرئيس خروشوف وجعله عنوان امتيازها على غيرها ، وهو السبق العلمى فى ميدان غزو الفضاء والصواريخ

والأسلحة الذرية . . . وفى بعض ميادين الإنتاج . . . فإن هناك عوامل أخرى مرحلية وقتية لا صلة لها بالتفكير الشيوعى هى التى أنتجت ذلك السبق . . .

وحسبنا فى إحباط قيمة ما يستشهد به خروشوف أن نذكر أن هذا السبق الروسى وليد ست سنوات أو عشر على الأكثر حينما فاخر خروشوف ، وأن سببه الأكبر هو غفلة طارئة من المعسكر الآخر عن طبيعة السباق على الكشوف العلمية وتقلبه بين لحظة وأخرى ، مما قد يغير ميزان القوى فجأة ، وأنه لا صلة له بالتفكير الشيوعى أو الرأسمالى . . . وإلا لكان الحكم على نظم روسيا ليس فى صالحها ولا فى صالح نظرياتها قبل نحو اثنتين وعشرين سنة ، لأن فى سبق الولايات المتحدة إلى تفجير القنبلة الذرية الأولى شهادة ، باعتراف خروشوف ، بسبق التفكير الرأسمالى . . .

فلندَعْ إذن المفاخرة بالسبق فى هذا المجال ، فإنها مردودة من وجوه كثيرة كما لا يخفى .

وبعد ، فإننا ندرك بصدق وتحرر من كل تعصب وكل قيد ، أن ما عندنا من اتجاهات أصيلة قديمة وحديثة لحل مشكلات الفكر والاعتقاد والعيش وإنصاف الطبقة الكادحة وغيرها من القوى العاملة التى تُكَوِّن تحالف قوى الشعب ، أعظم امتيازاً مما عند الاشتراكيات الأخرى وأسرع تأثيراً فى جمع الناس على العدالة وأسباب السلام . . . بالإضافة إلى أننا لم نجتث الإنسان فى نظريتنا العربية الإسلامية من تاريخه النفسى والعقائدى وتاريخه الحضارى المطرد ، ولم نحاول أن نقمع غريزة قوية من غرائزه الدافعة إلى غزارة الإنتاج وكثرة الإنشاء والتعمير .

ونحن لسنا غافلين عما يحرزه الركب الإنسانى عموماً من تقدم علمى عظيم . . . ولكننا ندرك « بالانبعاثات الخاصة » لمنطقتنا — كما عبر الزعيم الرئيس جمال عبد الناصر فى خطابه عند ما وطئت قدماه لأول مرة أرض روسيا ، رداً على خطاب ترحيب المارشال فورشيلوف — أموراً لا يمكن للإنسان أن يحيا حياته كاملة إلا بها . . ونرثى للذين يغلقون عقولهم ونفوسهم دون إشعاعاتها . . ونعجب كيف يهمل الإنسان الملحد إحساسه المؤلم بالفراغات النفسية الناشئة من عدم طمأنينته على مصيره ومصير الكون كله ، مهما ضمن حل مشكلة عيشه المادى هنا فى الدنيا ! !

ونعتقد أنه لولا شدة دوران عجلة الزمان بالملحدين — شيوعيين ورأسماليين — دورانًا متلاحقًا لا تريث فيه ولا توقف فى معترك الإنتاج والعمل والصراع ، واستغراق كل تفكيرهم وجهدهم فى ذلك ، لأحسوا بهذا الفراغ النفسى حينما يتطلعون إلى السماوات العليا ، وإلى فضاء النفس البشرية الذى لم يَعْبُرُوه كما عَبَرُوا الفضاء الكونى !

أجل، لا بد من عبور فضاء النفس للوصول إلى الإدراك الشامل والرؤية الواضحة التى تنتظم الكون كله . . . وإلا تحولنا إلى آلات كالصواريخ تفعل العظائم ولا تتذوقها بعقل أو ضمير أو وجدان أو أشواق !!

ويبدو أن الإنسان الشيوعى المتطرف قد أدى دوره الذى أحدث تغييراً كبيراً سريعًا لدى جميع الشعوب فى ميزان الاعتراف والتقدير للطبقة الكادحة والطبقات المظلومة بوجه عام .

ويخيل إلى أن هذا الدور قد انتهى إلى أن يلتقطه ضمير الاشتراكية العربية الإسلامية العريقة فى هذا المجال ليزاوجه بالاعتدال وعدم التطرف وبالإيمان بالله ورسالاته ، وليدفعه بالحماس الدينى الذى هو ( العنصر الفعال ) فى تفجير الطاقات الإنسانية الروحية الهائلة التى يمتاز إنسان الشرق الأدنى بأنه يحملها من قديم . وهذا ( العنصر الفعال ) هو عَقْد الصلة الوثيقة بين العمل فى الأرض ونتائجه فى السماء فى يوم الجزاء . . . وهو سر الكلمة التاريخية الفاصلة التى جعلناها فى صدر هذا الفصل .